ديوان ابن الرومى

(١)
كلمة عامة تمهيدية

هذا الكتاب أصعر من عنوانه . اسمه « ديوان ابن الرومى » وحقيقته مختارات من شعره انتخبها شاب فاضل من أنصار المذهب الجديد فى الأدب ، هو كامل أفندى كيلانى ، وأهداها إلى روح والدته التى « فقد بفقدها أكبر مصدر من مصادر الحنان والعطف » وجعلها ثلاثة أجزاء فى مجلد واحد ، جملة صفحاته خمسمائة ، فيها قريب من سبعة آلاف بيت . وصدّرها بمقدمة رائعة وضعها صديقنا الأستاذ العقاد فى « عبقرية ابن الرومى » لم يدع فيها شاردةً ولا واردة ، ولا ترك شيئًا لسواه يقوله ، حتى صار قصارى غيره إذا كتب أن يترسمه ويفصّل ما أجمل .

وهذه المختارات ، فى ذاتها ، خير ما كان ينتظر . وإن كانت على هذا مجموعةً حيثما اتفق ، ومسرودة على غير نسق مفهوم ونظام معلوم ، ولم تكن وراءها فكرةٌ ظاهرة أو غرض يطالعك ، سوى حشد طائفة من الشعر ! ولقد والله آلمنا ، ونحن نتصفح الكتاب ونعبر ما فيه من المختارات ، أن نرى ابن الرومى مقطّع الأوصال مبعثر الأشلاء على هذه الصورة ! ولعلنا مخطئون أو مبالغون فى إساءة الظن بالمختارات على العموم ، وفى عدم الركون إليها والاعتماد عليها . ولكن ابن الرومى ليس كغيره من شعراء العرب ، وما فى الوسع أن تقتطع له أبياتًا من هنا ، وأخرى من ههنا ، ثم تقول هذا هو ابن الرومى . كما لا يسعك أن تختار نخبًا من

روايةٍ لشكسبير مثلاً ، وأن تزعمها بعد ذلك هملت أو الملك لير أو مكبثٌ أو غير ذلك ، إنما كان هذا هكذا لأن ابن الرومى أقربُ إلى شعراء الغرب وبهم أشبه ، ولأن البيت فى قصائده يندر أن يكون وحدةً قائمة بنفسها ، مستقلة عما قبلها وبعدها إلا من حيث معانى النحو ، كما هو فى قصائد العرب . وكثيرًا ما يشذ ويخالف أوضاع العرب فى اعتبار البيت كلامًا تامًا فى ذاته غير متعلق بما يليه على مقتضى أحكام اللغة .

ولسنا نطمع أن نضيف شيئًا إلى ما قاله صديقنا الأستاذ العقاد فى مقدمته الجامعة ، فأنا من ذلك على يأس كبير ، وإنه ليكون حسبنا أن نستطيع أن نصف هذا الشاعر ، لا أن نحلله ، لمن لا يعرفون عنه إلا اسمه ، وإلا بضعة أبيات سارت على الرغم من خمول قائلها ، وأن نحبّبه إليهم ، ونغريهم بقراءته والإقبال على مطالعته . وابن الرومى ، بعد ، أحب شعراء العرب إلينا وأعزّهم علينا ، فليس أعذب ولا أشهى لدينا من أن نقضى ساعة معه ولو كل أسبوع .

وكأنّنا بابن الرومى قد بدأ النحس يزايله ! ففى بضعة أعوام طبع جزءٌ من ديوانه وجمعت له مختارات يستحق جامعها وناشرها أطيبَ الثناء . وما بالقليل أن يفوز بذلك من خمل فى حياته خمولاً منقطع النظير فى تاريخ الآداب ، مع وضوح حقه والإقرار له بالتفرد حتى فى زمانه ، ومن خفى شأنه أكثر من عشرة قرون طويلات المدد ! وناهيك برجل كان يسح بالشعر سحًا ، ويملأ الدنيا بالرائع منه المتداول الذى ينشد فى مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء ، ويروى فى حلقات العلماء والأدباء ، وهو مع ذلك يجوع ويظمأ ويعرى ، ولا يجد من يسد خلته ، ويستر فاقته ، ثم يموت فيطوى معه ذكره وشعره ، ويظل مغمورًا كل هذه القرون لا يعرف

عنه حتى الخاصة أكثر مما ورد فى تراجم العرب ، غفر الله لهم ، من أن اسمه على بن العباس بن جريج أو جورجيوس – فإن فى اسم جده شكًا واختلافًا !! – وأن ولادته كانت ببغداد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين فى موضع يعرف ، أو كان يعرف ، بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بازاء قصر لمولاه عيسى بن جعفر بن المنصور من نسل العباس بن عبد المطلب ! ثم كأنه لم يكن ! ؟

أما كيف كان يعيش أو ماذا كان يصنع غير الشعر الذى يقولون « إنه كان أقل أدواته » فلا يدرى أحد ! فليس أمامنا ما نعول عليه سوى شعره ، ويؤخذ منه أنه كانت له ضيعة ! نعم ضيعة مغلة أشار إليها فى قوله يعتذر لبعضهم من التخلف والانقطاع عنه :

وبعدُ فإن عذرى فى قصورى ... عن الباب المحجّب ذى البهاء
حدوثُ حوادثٍ منهـا حريق ... تحيّف ما جمعت من الثراء
فلم أسأل لـه خلفًا ولكن ... دعوت الله مجتهد الدعـاء :
ليجعلـه فـداءَك إن رآه ... فداءك ، أيهـا الغـالى الفداء
وأمـا قبل ذاك فلم يكن لى ... قرارٌ فى صبـاح أو مسـاء
أعانـى « ضيعة » ما زلت منها ... بحمد الله قدمًا فـى عنـاء

غير أن الله لم يبارك له فيها ولا فى غلتها ! كما هو ظاهر من الأبيات التى أوردناها . وكان إذا أخطأه الحريق الذى يتحيف ماله ، لا يخطئه الجراد يأتى على زرعه كما يقول :

لى زرع أتى عليه الجراد ... عادنى مـذ رُزيته العـواد
كنت أرجو حصاده فأتاه ... قبل أن يبلغ الحصادَ الحصادُ

وكانت له دار غير التى مات فيها فغصبتها منه امرأة !! فكاد يجن ! واستصرخ الوزير عبد الله بن سليمان بقصيدة يقول فيها :

أحين أسرت الدهر بعد عتوه ... وفللت منه كل ناب ومخلب
فأصبحت مكفيًا همومى مزايلاً ... غمومى، موقىً كل سوءٍ ومعطب
تهضّمنى أثنى؟ وتغصب جهرة ... عقارى؟وفى هاتيك أعجب معجب
لقد أذكرتنى لامرئ القيس قوله ... «فإنك لم يغلبك مثل مغلب» !
أجرنى! وزيرَ الدين والملك إننى ... إليك بحقى هاربٌ كل مهرب
توثب شخص واهن الركن والقوى ... على أيّد الأركان لم يتوثب
هو النكر من وجهين:غصب وبدعة ... وفى النكر من وجهين موضع معتب
فلا تسلمنى للأعادى وقولهم : ... ألا من رأى صقرًا فريسة أرنب!
أريد ارتجاع الدار لى كيف خيلت ... بحكمٍ مُمر أو بلطف مسبب

يعنى بحكم قضائى نافذ أو بحيلة لطيفة . فيا له من مسكين !

ولم يكن مولاه هذا العيسى بن جعفر يوليه شيئًا من جاهه أو ماله فكثر عتاب ابن الرومى له ومما قاله :

مالى أُسل من القراب وأغمد ؟ ... لم لا أجرد والسيوف تجرد ؟
لم لا أجرد فى الضرائب مرة ... يا للرجال وإننى لمهند ؟
بل قد حكى التجريبُ أنى صارم ... ذكر فلم أُلقى ولا أتقلد ؟
لم لا أُحلى حلية أنا أهلها ... فيزان بى بطل ويكفى مشهد ؟
أنا من علمت مكانة وابن الذى ... ما زال فيكم يستعان فيحمد
لا تبتروا عندى وعند أبى يدًا ... بيضاء ماجحدت وليست تجحد
أولوا وليّكم حديثًا مثله ... يصل القديم وتستتم به اليد
يثمر لكم حمدين : حمدًا منكم ... لهما وحمدًا منهما لا ينفد
أرعوا زروعكم عيونَ تعهد ... منكم فمثل ، زروعكم تستعهد
أنا من عرفت وفاءه وصفاءه ... وولاءه إياك إذ هو أمرد
إلا أكنْ فى كل ذلك أوحدًا ... فردًا ، فإنى فى المودة أوحد
هبنى امرءًا ليست له بك حرمة ... ترعى ، أما لى زلة تستغمد ؟

فلم يجده العتاب والتألف وقضى أكثر عمره فى ضيق ليس أبلغ فى الدلالة على أثره فى نفسه وفى جسمه من قوله :

أيـــا حسرتا إن أفســد الضيق صحـــتى

فضاعف حاجاتى وأوهى قوى نهضى !

وكان يبلغ من فاقته ورقة حاله وهوان أمره ، أن كان يدفع عن الأبواب بفظاظة ، وإلى هذا يشير بقوله :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب ... محا الله ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس إذا حييته بتحيـــة ... فيالك من كبر ومن منطق نزر !
يظل كأن الله يرفـــع قدره ... بماحط من قدرى وصغّر من أمرى
إذ ما رآنى عاد أعمى بلا عمى ... وصم سميعًا ما بأذنيـــه من وقر
أزف إليك البكرَ مازُف مثلها ... فيدفع منها فى الترائب والنحـــر
ومن شيم الحجـــاب أن قلوبهم ... قلوبٌ على الآداب أقسى من الصخر

بل كان من الفقر بحيث كان يستجدى من إخوانه الكساء فلا يصيب منه قصاصة ، وله فى ذلك شعر كثير ومنه قوله :

جعلت فداك لم أسألك ... ذاك الثـــوب للكفن !
سألتكـــه لألبســـه ... وروحى بعـــد فى البدن

وربما فاز ، ولكن بما لا يعد ثوبًا إلا على المجاز ! كما يقول فى ثوب عتيق جاء مرة :

قد طوى قرنًا فقرنـــا ... وأنـــاسًا فأناســـا
لبس الأيـــام حتى ... لـــم يدع فيهـــا لباسا
غاب تحت الحس حتى ... مـــا يُرى إلا قياســـا !

وكان يمدح أهل الثراء فلا يصيب إلا الرد ويستصرخ القادرين فلا يغنون

عنه . بل لا يقرأون كلامه أحيانًا كما يدل على ذلك قوله لصاعد ابن مخلد :

يا سيدًا لم يلتبس عرضه ... بذم رائيه ولا خابره
ظاهره أحسن من غيبه ... وغيبه أحسن من ظاهره
ومن إذا الرأى خبا نوره ... فإنما يقدح من خاطره
فلا ترى أثقب من ذهنه ... فيه ولا أيمن من طائره
أول ما أسأل من حاجة ... أن تقرأ الشعر إلى آخره
قراءةً تصدر عن نية ... تفهم قلب المرء عن ناظره

ولم يكن أهله على ما يظهر أرفق به ولا أحسن رعاية له كما هو واضح من قوله :

لىَ ابن عم يجر الشر مجتهدًا ... علىَ قدمًا ولا يصلى له نارًا
يجنى فأصلى بمايجنى، فيخذلنى ... وكلما كان زندًا كنت مسعارًا

وقوله من قصيدة أخرى وهو أوضح وأعم :

وأنى لبرٍّ بالأقارب واصلٌ ... على حسدٍ فى جلهم وعلى بغض

ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان بعض الشيء ولكن شيخنا كان أيضًا يتطير . وكان طياشًا وبه حماقة . أو إن شئت فقل إنه كان لطيف الشعور دقيق الحس عارفًا قدر نفسه وأقدار غيره من معاصريه ، فأورده ذلك موارد مرة ، وكان ربما لزم بيته أيامًا لا يخرج ولا يتصرف ، وحوله صبية ونساء جياع ظماء ، مخافة أن يبرح الدارَ فيباغته ما لا قبل له باحتماله مما يتطير منه ، وقد كان يتطير من كل شيء ! والناس لا يدركهم عليه عطف ، ولا تأخذهم بضعفه هذا رحمة ، ولا يصدهم إنصاف أو تقدير

عن معابثته بما يكره وما يثقل وقعه عليه . فواحد يعيبه بمشيته ويزعمها مثل مشية المخنثين ، كما فعل أخو « نضير » وكان ابن الرومى يريد أن يتزوج ابنته . وآخر يقدح فى شعره وهو يستجيده ليهيجه ويدفعه إلى الهجاء ، وكان ذلك دأب الأخفش ووكده ، وثالث يعيره ببغضه للقلانس والبرانس وإيثاره العمامة على خلاف أهل عصره . ورابع يستفزه بالإيماء إلى صلعته والتضاحك منها . وهو أحس بذلك كله من أن يستطيع الاحتمال والسكوت ، حتى لقد كان فى شغل مضنٍ من الرد على عائبيه ممن لا يخفى عليهم مكانه ، ولا يقصدون إلا إلى استثارته ليركبوه بالمزاح .

وهكذا عاش ابن الرومى . فقر وغمط وحرب طاحنة الأرجاء بينه وبين مناجزيه من الجادين والهازلين ، ولم يكن ينقصه إلا أن يدس عليه الوزير أبو القاسم من يطعمه فطيرًا مسمومًا لتتم رواية الشؤم التى لا تزال لها ذيول على ما يظهر ! فقد كتبت عنه منذ عشر سنين بضع مقالات فلم أكد أفرغ من الأولى أو الثانية حتى كسر رجلى ما لا يكسر ! وشرح الشيخ شريف الجزء الأول من ديوانه فأحيل إلى المعاش ! وطبع صاحب المكتبة التجارية هذه المختارات من شعره فهيضت ساقه ! فعسانا حين نعود للكلام عليه لا تكون قد دقت عنقنا !

(٢)
أصلـه

لم يكن ابن الرومى عربيًا ولا شبيهًا بالعرب وإن كانت العربية لغته التى لم يكن يعرف – أو التى لا نعلم أنه كان يعرف – سواها ، ولقد ولد وشب وترعرع بين العباسيين ولابسهم وصار منهم « بقضاء من ختمت رسل الإله به » كما يقول ، ولكنه لم يصر بذلك كالعرب ، لا فى طبيعته ولا فى فنه ولا فى أساليب تفكيره ، بل حتى ولا فى عاداته وأخلاقه . وقد ذهب بعض كتاب العرب إلى أنه سمى ابن الرومى لأنه كان جميلاً فى صباه ، وأوردوا ذلك على أنه احتمال معقول وتعليل مقبول . وليس الأمر كذلك ولا هو يمكن أن يكون كما زعموا ، وأحسب من يقول بذلك إنما يدل على أنه لم يقرأ شعر بن الرومى بغير عينيه .. فإن الرجل لم يدع مجالاً للشك فى أنه رومى على الحقيقة لا على المجاز . ومن غريب ما يلاحظ المطلعُ على ديوان هذا الشاعر ، أنه ينمى نفسه إلى الروم ، ويذكر فى أكثر من موضع واحد أنهم أصله ، وإن كان جده لأمه فارسيا كما أن جده لأبيه رومى . وشاهدنا على ذلك قوله فى نونيته الشهيرة التى مطلعها :

أجنينك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعـان : تفاح ورمان

* * *

إن الرحيل إلى من أنت آملـه أمنٌ ، لمزمعـه بالنجح إيقـان
فادع القوافى ونص اليعملات له تجبك كل شرود وهى مذعان
إن لم أزر ملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك (يونان)
بل إن تعدت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس (ساسان)

ولكنه يدع الفرس قوم أمه ولا ينتسب إلا للروم أهل أبيه ، حتى حين

يفخر بمواليه من بنى العباس ويعتدهم أهله ، مع إنه لم يكن يخفى عليه مقدار تغلغل الفرس فى الدولة العباسية وتغلب المدنية الفارسية عليها :

قومى بنو العباس ، حلمهم حلمى كذلك ، وجهلهم جهلى
نبلى نبالهم ، إذا نزلت بى شدة ، ونبالهم نبلى
لا أبتغى أبدًا بهم بدلاً لف الإله بشملهم شملى !
ومتى وردت حياضهم معهم لم يشربوا صفواتها قبلى
قوم ، غدا برى وتكرمتى من شغلهم ، ومديحهم شغلى
المنعمون علىَّ أنعمهم والحامدون لكل ما أبلى
أنا منهم ، بقضاء من ختمت رسل الإله به ، وهم أهلى
مولاهم وغذىّ نعمتهم والروم حين تنصنى ، أصلى

ويكرر ذلك حين يمدح الأخفش المعاصر له ويفضله على الأخفش القديم ، ويذكر أنه غريب بين الاثنين وأنه لذلك بعيد عن المحاباة ، وفى هذا يقول :

ذُكر الأخفش القديم فقلنا إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ما حكمت - والروم قومى - فى كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيه غريب لا أرى الزور للمحاباة أهلا

ويعاتب محمد بن عبد الله فيقول فى آخر القصيدة :

إذا الشاعر الرومى أطرى أميره فندهيك من مطرىّ وناهيك من مطر

لا كأبى نواس الذى كان يخلط فى دعوته وينتسب مرة إلى النزارية ، وينتمى مرة أخرى إلى اليمانية ، وكان قبل ذلك يتعاجم فى شعره ، وأنه ليعلم أن الفرس قد مضوا بأصله وإنهم أحق به إذا أراد أن يدعى لأحد .

ويظهر أنه كان شديد الإحساس بروميته والشعور بغربته . والاثنان

متلازمان . فتراه يزهو تارة ويباهى بأن الروم أصله ، كما هو ظاهر مما مر بك من كلامه . ويألم تارة أخرى أنه غريب بين العرب ، وفى ظلهم ، وأنه فقد بذلك وطنه . كما تتبين ذلك من قوله لبعضهم وكان قد بلغه أنه يحسده ويعيب شعره ، ولعله الوحيد الذى فرّق بين الجنسية الدينية والجنسية القومية وأحس الألم لفقدانه « الوطن » :

أيها الحاسدى صحبتى العسر ... وذمى الزمان والاخوانا
حسدًا هاجه على ثلب شعرى ... ولقائى معبسًا غضبانا
وانتقاصى مع « العدو » وقد كا ... ن يرى لى نقائصى رجحانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه ... أيها الظالمى إخائى عيانا ؟
أعلى أننى ظمئت ، وأضحى ... كل من كان صاديًا ريانا ؟
أم على أننى ثكلت شقيقى ... وعدمت الثراء والأوطانا ؟

ولسنا نظن أحدًا سيقول إنه ما جاء بالأوطان إلا من أجل القافية ! فليس ابن الرومى من تعييه القافية أو تضطره إلى غير ما يريد أن يقول . وإنك لتقرأ شعره فيخيل إليك أنه يتناول الألفاظ ويقسرها قسرًا على أداء المعانى التى يقصد إلى تبيينها والعبارة عنها .

ومن أجل ذلك لم يكن يفخر بقومه كما فعل مهيار الديلمى — وهو فارسى الأصل — حين قال يعنى الفرس :

قومى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب

بل كان يقول حتى حين يمدح نفسه ويشيد بكرم أخلاقه :

أُغضى الجفون عن السوءى مراقبة ... لما يكون من الحسنى وما كانا
أجزى الأخلاء صفحًا عن إساءتهم ... —إذا أساءوا —وبالإحسان إحسانا
أذكر النفس مثنى من محاسنهم ... إذا ذكرت ذنوب القوم أحدانا
وليس ذاك لآبائى ومجدهم ... لكن لأنى اتخذت العدل ميزانا

والبيت الأخير هو الشاهد . وهو لفرط إحساسه بغربته دائم الالتفات إلى هذا المعنى ، يمدح يحيى بن على المنجم فيقول فيه :

ربّ أكرومة لـه لـم تخلها قبلـه فى الطبـاع والتركيب
غرّبته الخلائق الزهـر فى النـا س ومـا أوحشتـه بالتغريب

فكأنه يعنى نفسه بهذا البيت ويحتاط فى التعبير من أجلها ويصف حاله هو لا ممدوحه .

ويهجو اسماعيل بن بلبل فلا يرى إلا أن يشتهر بانتسابه إلى شيبان زورًا ويقول :

تشيبن حـين همَّ بأن يشيبا لقد غلط الفتى غلطًا عجيبا

ويقول فى قصيدة أخرى مشنعًا :

عجبت مـن معـشر بعقوتنـا باتـوا نبيطًا وأصبحوا عربا
مثل أبى الصقر إن فيه وفى دعـواه شيبان آيـةً عجبا
بينـاه علجا على جبلتـه إذ مسـه الكيمياء فانقلبـا
عربـه جـده السعيد كمـا حـول زرنيخ جـده ذهبـا
وهكذا هـذه الجـدود لهـا إكسير صـدق يعرب النسبـا

* * *

وبعد ، فلأى غاية نأتى بهذه الشواهد ونستكثر منها ؟ أكل ذلك لنقول إنه كان روميًا ولم يكن عربيًا ؟ أو لم يكن يكفى أن نذكر اسمه ، وأن نقول إنه كان مثله أجنبيا من الأمة التى شب وشاب بينها ، ونطق بلسانها وحذق علومها ، وتوفر على آدابها ، واستظل بمدنيتها ؟ وما قيمة ذلك ؟ ألم يكن كغيره من الغرباء من مثل بشار بن برد ومروان بن أبى حفصة

وأبى نواس ومهيار وابن المقفع وابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان وأبى إسحاق الصابئ وابى الفرج الأصبهانى وغيرهم ممن لا يكاد يأخذهم حصر ؟ نقول نعم ، كان كهؤلاء من غير الأمة التى نبت فيها ، ولكنه يختلف عنهم – أو عن كثير منهم – وبباينهم بأنه احتفظ بطبيعة الجنس الذى انحدر منه ، حتى صارت روميته هذه التى يتشبث بها ويعلنها ، ولا يكتمها ولا يقشبها بالفارسية – مفتاح شعره ونفسه ، وحتى لا سبيل إلى فهمه وتقديره بغير الالتفات إليها والتنبه لها . وإنه ليصلح أن يتخذه المرء شاهدًا على قوة الوراثة وفعلها ، على الرغم من كل تأثير مناهض لها مضعف لفعلها . « فالرومية » كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد بحق « هى أصل هذا الفن الذى اختلف به ابن الرومى عن عامة الشعراء فى هذه اللغة ، وهى السمة التى أفردته بينهم إفراد الطائر الصادح فى غير سربة . وربما بَذَّهم فى أشياء ، وقصر عنهم فى أشياء غيرها ، ولكنه لا يشبههم ولا يشبهونه فى تفوقه وتقصيره على السواء ، فلهذا انقطع ما بينه وبينهم من نسب الأدب وجرثومة الفن ، لا لأنه أفضل منهم جميعًا ولا لأنهم جميعًا أفضل منه » .

وسنحاول فى المقال الآتى أن ندير هذا « المفتاح » فى القفل ، وإنها لفرصة نغتنمها لنستأنف ما حاولناه منذ عشر سنين من تعريف الناس بهذا الشاعر الفذ ، فلعلنا نوفق فإن المهمة شاقة ، وحبل الكلام طويل ، وشعبه كثيرة .

(٣)

شخصيته

(أ)

عاش ابن الرومى ، ما عاش ، ساخطًا على الحياة ناقمًا على العصر وأبنائه ، مضطغنًا على الزمن وصروفه ، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحدٌ من الشعراء المعاصرين . وشعره الذى قيد فيه كل حالة من حالات نفسه ، وأودعه ما استطاع من التفاتات ذهنه ، حافلٌ بالشواهد على ذلك . وعذره من هذا التمرد عذُر كل حسّاس مصقول النفس مثقف العقل ، تصطدم عنده الآراءُ والعقائد بمظاهر الحياة وواقع الحال . وليس أقسى من أثر ذلك فى النفس ولا أوجع . ولسنا نحتاج أن نرجع إلى عصره بصفة خاصة . فإن الحياة كانت قديمًا ومازالت إلى الساعة ، وستظل إلى آخر الزمن ، إن كان له آخر ، صراعًا دائمًا وجهادًا متواصلاً . وما نظن الحياة الإنسانية خلت قط من بواعث السخط ودواعى التذمر . وما كان المرء ليهتدى إلى الشعور بنفسه ولينطق بقولة « أنا » لولا ذلك ، ولولا إحساسه إلى جانب هذا — أو قبله — بحدود قدرته ، وباحتكاكه بما يجاوز هذه الدائرة ، ويحدد هذا المجال ، وقد يعين الجهل أو البلادة أو كلاهما على الرضى وإشعار النفس الراحة الحيوانية ، فلا يرى المرء فيما يحيط به ويضيق عليه ، إلا عدلاً مقنعًا وضرورة لا مهرب منها ، ولا خير فى التبرم بها . وليس كذلك المثقف الذكى المشاعر الذى كأنما يحس الحياة بأعصابه العارية . مثل هذا لا يسع طوقه أن يغمض عينيه وينيم أعصابه حتى لايرى ولايحس مافى الدنيا من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض . ومهما كانت وجوهُ الاختلاف ومواضع التباين بين عصرنا هذا ، مثلاً ،

وعصر ابن الرومى ، فإن مساوئ الحياة ومتاعبها واحدة . وما كان سخط ابن الرومى على مظهر عارض أو عيب طارئ، فنحتاج أن نصف هنا ما كان عليه زمانه ، ولكنه كان على ما يخلو منه عصر ولا يبرأ من مثله زمن .

ومن الذى يقرأ قوله مثلاً :

أترانـــى دون الأولى بلغو الآ ... مـال من شرطة ومن كتاب ؟
وتجارٍ مثل البهـــائم فـــازوا ... بالمنى فـى النفوس والأحبـــاب
أصبحوا يلعبون فى ظل دهـــر ... ظـاهرِ السخف مثلهم لعّاب
غير مغنين بـالسيوف ولا الأقــ ... ـلام فى موطن غنـاءَ ذبـــاب
ويظلون فى المناعـــم واللذات ... بـين الكـــواعب الأتـــراب
هـم المسمعات مـا يطرب السا ... مع والطائفـــات بالأكـــواب
نَعَـــمٌ ألبستهـــم نِعَـــمُ الله ... ظـلالَ الغصون منهـا الرطاب
حين لا يشكرونها وهى تنمى ... لا ولا يكفرونهـــا بارتقـــاب
كم لديهم للهوهم من كعاب ... وعجـــوز شبيهـــة بالكعـــاب
خندريس إذا تراخـــت مداهـــا ... لبست جدّة عـــلى الأحقـــاب
بنت كرم تديرهـــا ذاتُ كـــرم ... موقيد النجيـــر مثمر الأعنـــاب
لذة الطعـــم فى يدى لذة الملثم ... تدعو الهـــوى دعـــاءَ مجـــاب
يونق العين حسن ما فى أكف ... ثم تسقى ، وحسن ما فى رقاب
ومزاج الشراب إن حاولوا المـــز ... ج رضابٌ ياطيب ذاك الرضاب
من جـــوار كأنهـــن جـــوار ... يتسلسلن من ميـــاه عـــذاب
لو ترى القـــوم بينهن لأجبرت ... صراحًا ولـــم تقـــل باكتساب
من أنـــاس لا يرتضون عبيدًا ... وهـــم فى مـــراتب الأربـــاب
وكذاك الدنيـــا الدنيـــة قدرًا ... تتصدى لألأم الخطـــاب ، إلخ

نقول من الذى يقرأ هذه الأبيات – وإن كان ما حذفناه أضعاف ما أثبتناه – ولا يحس ما فيها من الصدق ، ولا يذكر بها كثيرين ممن يرفلون

فى حلل السعادة ، وهم لم يمدوا إليها يدًا ، ولا سعت بهم فى سبيل اكتسابها قدمٌ ولا استحقوها إلا بأن الحظ أورثهم إياها ، وإن لم يكونوا خير الناس ولا أكفأهم ولا أفضلهم ؟

وعسى من يعترض فيقول إن هذا أشبه بأن يكون حسدًا لا سخطًا على جور الحظ ، ودليل ذلك قوله بعد أبيات :

لم أكن دون مالكى هذه الأملا ك لـو أنصف الزمـان المحابى

نقول كلا ! ليس هذا فى شىء من الحسد . وإنما الذى يغلّط المعترض أن ابن الرومى يعرف قدر نفسه ولا يخفى عليه مكانه من الفضل والاستحقاق ، وأن إحساسه بثقل القيود المحيطة به ، وشعوره بعرقها وحزها ، وإدراكه لمبلغ تعويقها ، كل هذا قد أبرز « أنا » فى شعره وفى حياته إلى المكان الأول من الواعية . ونظن أننا فى غنى عن الاطالة فى تبيين أن الذاتية إنما يُبرزها إدراكُ حدودها والتصادمُ بما هو خارج عنها ، إذا صح هذا التعبير . ومن الجلى أن الرجل الذى تتدفق حياته فى مجرى لين لا يعوقه شىء ، يختلف إحساسه بذاتيته عمن تعترضه العقبات فى كل خطوة .

وقد كان ابن الرومى يريد أن يحيا حياة فنية : أى حياة تكون أقربَ إلى مُثُله العليا التى كان ينشدها ، وأخلق بما يفهمه من وظيفة الشاعر وأليق بمنزلته ، كما هى فى نظره ، فبغى ذلك وعجز عنه ولم يظفر به ، وعزّه أن يكيف نفسه على مقتضى الظروف والأحوال التى تحيط به ، ومن هنا حفل شعره بذكر نفسه ، واكتظ بالمقابلة بين الرغبة والامكان ، وبين الأمل والواقع .

ونرجع إلى القصيدة التى سقنا منها هذه الأبيات ، فنقول إن ابن الرومى بعد أن أفاض فى صفة هؤلاء الناس وما ينعمون به استطرد إلى ذكر رجل

رآه أحق بهذه النعم الجزيلة منهم وأسِف لما هو فيه ولعدم انتفاعه بفضله وعلمه ، فقال :

كابن عمّارٍ الذى تركتــــه حمقـــاتُ الزمـان كالمرتاب
من فتى لو رأيته لرأت عينا ك علمًا وحكمة فى ثياب
بزه الدهر ما كسا الناسَ إلا ما عليه من لحمه والأهاب
أو حلى ظرفـــه التى نحسته فلو اسطاع باعهـــا بجراب
سوءةً سـوءة لصحبة دنيـــا أسخطت مثله من الأصحاب

وليس ابن عمار هذا الذى عدا عليه الدهر وسلبه كل ما كسا الناس إلا اللحم والجلد – نقول ليس هو بالذى كتبت إليه القصيدة بل ذاك غيره . فليس بابن الرومى حسدٌ ، وإنما هو سخط على ظلم الحظوظ . ويؤكد ذلك ، وإنه لا يقصد إلا إظهار ما فى الدنيا من التخليط والغبن ، أنحاؤه بعد ذلك فى القصيدة عينها على الشرط وهم الأعوان الذين يوكل إليهم حفظ الأمن :

شرطٌ خُولـوا عقائل بيضًا لا بأحسابهـم بـل الأكســـاب
فإذا مـــا تعجب الناس قـــالوا : هل يصيد الظباءَ غير الكلاب؟
أصبحوا ذاهلين عن شجن النـــا س وإن كان حبلهم ذا اضطراب
فى أمور وفى خمـــور وسمّـــو ر وفى قاقُـــم وفى سـنجاب[(١)]
وتهاويـــل غير ذاك من الرقـــم ومن ســندس ومن زريـــاب
فى حـــبير منمنـــم ، وعبير وصحـــان فسيحة ورحـــاب

(١) السمور والقاقم بضم القاف الثانية والسنجاب حيوان تتخذ فراؤها لنعومتها ونفاستها .

في ميـــادين يخترقن بســاتين تمسّ الــــرؤوس بالأهـــداب
ليس ينفك طيرها في اصطخاب تحت أظلال أيكها واصطحاب
عندهم كل مـــا اشتهوه من الآ كال والأشربـــات والأشـــواب
والطروقـــات والمراكب والولـ ـدان مثل الشوادن الأســراب
واليلنجوج في المجـــامر والند ترى نشره كمثل الضبـــاب

ولا ينبغي أن يفوت القارئ وهو يقرأ هذه القصيدة وغيرها من مثيلاتها التي قد تتخذ دليلاً على ما انطوت عليه نفس ابن الرومي من الحسد أو الحقد ، نقول لا ينبغي أن يفوته أن الرجل كان دقيق الحس لطيف الشعور ، وأنه كان من قوة الخيال بحيث يستطيع أن يحضر لذهنه ويتمثل أمامه ما يتخيله ، ويجسده لنفسه كأنه واقع يحس ويلمس . ومن هنا تراه إذا وصف أفاض واسترسل ، وتوخى الاستقصاء والتصفية ولم يدع شيئًا . ودفعه إلى الاسترسال وأغراه به ، لا الحسد ولكن لطفُ الحس الذى يتناول أدق الأشياء وأخفاها ، ومراحُ الخيال القوى الذى يجسد الصورة ويُشعر صاحبه اللذة والمتعة المستفادتين من استقصاء الجوانب وإتمام النواحى . وقوة الخيال تغرى أبدًا بمثل هذا وتبعث عليه ، وقد يبدأ المرء غير معتزم إطالةً ، حتى إذا استولت عليه قوةُ ما يتخيل ، سحره ذلك وتملكته روح الفن ، فاندفع على غير قصد ومضى ولم يكن فى حسبانه أن يمضى ...

فليس ما به حسدًا ولكنه قوة الخيال ودقة الشعور وبروز الاحساس بالنفس ، ومع ذلك هبه كان حسدًا وحقدًا ، أو ما شئت فسمه ، فماذا إذن ؟ أليست هذه طبيعة الناس ؟ ألسنا قد خلقنا الله كذلك ؟ فأى بأس فى أن نكون كما برئنا .

« وأين عن طينتنا نعدى ؟ » .

كما يقول ابن الرومي . ونرد المسألة إلى أصلها الأول ، فنقول إنه لم

يستطع أن يتكيف على مقتضى الأحوال التى يعيش فى ظلها كما استطاع ويستطيع أكثر الناس . وأكثرهم بلا مراء أوساط عاديون . ومرد هذا العجز إلى حالة الأعصاب ، ولا يخفى أن الدافع إلى التكيف هو الرغبة فى سد حاجة عضوية أو اتقاء متعبة . ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن المرء يسعى إلى التكيف ليحس الارتياح ولينفى أو ينقص المتاعب . فإذا لم يستطع ذلك ولم يقو عليه ولم ينل ما يناله منْ وَسِعةَ ذلك من الارتياح ، ولم يتق ما اتقاه غيره من الاحساسات المنغصة . ولا مفرّ له بعد ذلك من أن تثقل وطأة الحياة والناس عليه ، ومن هنا يأتى سخطه على الحياة ، ونقمته على المجتمع ، وتبرمه بأنظمته وأحواله ، وقلة صبره على ما يسوءه مما يحتمله الأكثرون أو لا يلتفتون إليه ، وسرعة تهيجه وغضبه على معاشريه والمحتكين به والذين يلتقى بهم فى طريقه . ومن هنا أيضًا تنشأ الأوهام وتصير عنده حقائقَ ثابتةً لا سبيل إلى طردها أو التفطن إلى أنها ليست إلا مما يحدث فى جوفه ويجرى فى نفسه لا مما تحدثه إرادة خارجية . ومن هنا كذلك تتولد فكرة الاضطهاد المتوهم والاشفاق من العالم الخارجى ومن ساكنيه وتوقع الأذى من ناحيتهما . وهذا كله ظاهر ينطق به شعر ابن الرومى .

(ب)

كان ابن الرومى فى صباه فتى غرانقًا ، كما يقولون ، وسيم الطلعة ، مقدود القوام قدّ السيف ، كما يقول :

أنا من خفٍّ واستدق فما يثقل أرضًا ولا يسد فضاءا

خفيفَ الروح أنيس المحضر ، مزهوًا بملاحته مغرورًا بشبابه ، مدفوعًا بحرارته وبقوة إحساسه إلى اغتنام فرصة الحياة ، فلبس هذا البرد « لبسَ ابتذال » كما يقول ، وأخلقه ولم يصنه ولا ادّخر منه شيئًا للكبر ، وفعل بصباه فوق ما يفعل الناس فى العادة . ولعل الذى أعجزه عن القصد وعدل به عن الاعتدال ، وقدةُ إحساسه مع الشباب من جهة ، ووسامته من جهة

أخرى ، ولم يكن ابن الرومى يخفى عليه أنه جميل ، وأن جماله يصبى النساء كما يصبيه حسنهن ، ولا كان يتحرج أن يذكر ذلك فى شعره ويباهى به ، حتى بعد أن شينت ديباجته ، وتقوست قناته ، فتراه مثلاً يقول وهو يستسقى عهد الشبيبة ويتلهف عليها :

ولو شهد الشبابُ ، إذن لراحت وإن بها—وعيشك—ضعف ما بى
فياغوثًا هنـاك بقيـد ثـأرى إذا ما الثأر فات يد الطـلاب !

وقد أورده ذلك ما يورد ، فاغتال اللعبُ بأولى الدهر شِرَّتهُ « بأخرى حقودٍ ، والجرائم تحقد » وتضعضع كيانه ودب الكلال فى عظامه وتوكأ على العصا :

ولذّت أحاديثى الرجال وأعرضت سليمى وريا عن حديثى ومهددا!
وبدّل إعجاب الغـوانى تعجبًا فهـن روان ، يعتبرن ، وصدد

وفقد شبابه بسرعة ولم يفقد لباناته وأوطاره فصار كما يقول :

شعر ميت لذى وطـرٍ حـىٍّ كنار الحـريق ذات اللهـيب
معـه صبوةُ الفـتى وعليـه صرفـةُ الشيخ ، فهو فى تعذيب

وناهيك بهذا من عذاب ! وقد يحب أن يتعزى فيقول :

لو يدوم الشبابُ مدةَ عمرى لـم تدم لى بشاشةُ الأوطار

ولكنه لم يستطع عزاءً ، ورزح شيئًا فشيئًا على مر الليالى ، وانتابته الأسقام واصطلحت عليه العلل والأمراض ، وصار كما يقول :

أنا ذاك الذى سـقته يدُ السـقم كؤوسًا مـن المـرار رواءا
ورأيت الحمامَ فى الصور الشنع وكانت لولا القضـاء قضاءا
ورماه الزمـان فى شقّة النفس فـأصمى فـؤاده إصمـاءا
وابتلاه فى ذاك بالعسر والوحشة حتى أمـل منـه البـلاءا
وثكلت الشـباب بعد رضـاع كان قبل الغذاءَ قدمـا غـذاءا

ولم تسلم حتى عيناه فقد كانتا كثيرًا ما ترمدان ، وفى ذلك يقول لعبيد الله بن عبد الله :

شُغلت عنك بعوّار أكابده ... لا بالملاهى ولا ماء العناقيد
قاسيت بعدك- لاقاسيت مثلهما ... نهارَ شكوى يبارى ليلَ تسهيد
أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى ... فما نهارى من ليلى بمحدود
كأننى من كلا يومى وليلته ... فى سرمد من ظلام الليل ممدود
إذا سمعت بذكر الشمس أسّفنى ... فصعدت زفراتى أى تصعيد
لايطمئن بجنبى لين مضطجع ... وما فراشُ أخى شكوى بممهود
أرعى النجومَ - وأنى لى برعيتها ... وطرف عينىَّ فى أسر وتقييد ؟ !
وإنّ من يتمنى أن يؤاتيه ... رعىُ النجوم لمجهود المجاهيد
وضاقت الأرض بى طرًا بمارحبت ... فصار حظى منها مثل ملحودى

يعنى بالملحود القبر ، وقد لازمته علته هذه شهرًا وتكررت ثم انتهى الأمر به إلى ضعف البصر كما يقول فى دالية له يندب فيها شبابه :

وبورك طرفى ، فالشخوص حياله ... قرائنُ من أدنى مدى، وهى فرد

وله فى قصيدة أخرى :

وأحدث نقصانُ القوى بين ناظرى
وسمعى ، وبين الشخص والصوت برزخا
وكنت إذا فوّقت للشخص لمحتى
طوت دونه سهبًا من الأرض سربخا
فحالت صروف الدهر تنسخ جدتى
وما أمليت من قبل إلا لتنسخا

وأخلق به أن يضعفه ويصيره إلى هذا المصير استهتارُه فى صدر أيامه ، وإدمانه القراءة والاطلاع ، فقد أحاط ابن الرومى بكل ما يحاط به من

العلوم والمعارف والآداب فى عصره ، كما يدل على ذلك ما فى شعره من الإشارات التى يحتاج المرء فى فهمها إلى العلم بتاريخ العرب والفرس جميعًا والوقوف على كل ما كان لهم فى كل باب . وقد ذكرنا لك أن أحد مؤرخى العرب قال عنه إن الشعر كان أقل أدواته ، ويقول ابن الرومى نفسه للقاسم بن عبيد الله :

أن أكن غير محسنٍ كلَّ ما تطلب ... إنـــى لمحســـن أجـــزاءا
فمتى ما أردت طالبَ فحص ... كنتُ ممن يشارك الحكمـــاء
ومتى ما أردت قـــارض شعر ... كنتُ ممـــن يساجل الشـــعراء
ومتى مـــا خطبت منى خطيبًا ... جل خطبى ففاق بى الخطبـــاء
ومتى حـــاول الرسائلَ رســـلى ... بلغتنى بـــلاغتى البلغـــاء ، إلخ

وليس بغريب بعد ذلك أن لا تسلم أعصابه ، وأن تضطرب ويختل توازنها . ومهما يكن من الأمر فإن من المحقق أنه لم يكن سليم الأعصاب ، وأن جهازه العصبى كله كان غير منتظم . يدل على ذلك موت أبنائه الثلاثة واحدًا بعد واحد ، وفى غير السن التى يكون فيها الإهمال من أسباب الوفاة ، ومراثيه لهم ، بخاصة داليته فى رثاء أوسطهم ، لا يفوقها شىء فى لغة العرب أو غيرها من اللغات التى اطلعنا على آدابها ،وقد كان إلى جانب ذلك أحمق طياشًا سريع الغضب ، وكان إحساسه الجنسى حادًا ليس فيه شىء من الاعتدال البتة ، وهنا لا يسعنا بكرهنا إلا أن نذكر أن معاصريه كانوا يستفزونه بقولهم عنه إنه عنين ، وكانت تثور ثائرته لذلك فيهجوهم أفحش الهجاء وأقذعه ، وينكر التهمة ، ويعنى بدفعها ، ولكنه مع ذلك قال وهو يتحرق على شبيبته :

لهفَ نفسى على القناع الذى مجّ ... وأعقبت منـــه شـــر عقيب
منع العـــين أن تقر ، وقـــرت ... عين واش بنـــا وعين رقيب
نفّر الخِلـــمَ ثـــم ثنّى فـــأمسى ... خيّب العـــرسَ أيمـــا تخييب

والبيت الأخير هو الشاهد . والاعتراف فيه صريح لا يحتاج إلى تعليق ، فكأن ما قيل عنه حق ، أو هو إلى الحق أقرب وبه أشبه . ثم لا تنس أنه فى هجائه قلما يفوته أن يبسط لسانه بسطًا شنيعًا فى أعراض من يهجوهم من الرجال والنساء أحيائهم والأموات .

على أنه ليس أقطع فى الدلالة على اضطراب أعصابه من طيرته . وكان مفرطًا فيها ، وبلغ من غلوه أنه كان كلما أراد الخروج من البيت « يتعوّذ » بعد أن يلبس ثيابه ثم يمضى إلى الباب وفى يده المفتاح ، ولكنه لا يديره فيه ، بل ينظر أولاً من ثقب هناك فى خشب الباب لأن له جارًا أحدب يتطير من رؤيته ويخشى أن يلقاه ، فإذا رآه من الثقب عاد أدراجه ، وخلع ثيابه ، وأقام فى بيته لا يبرحه ، ولعل حاجته إلى الخروج شديدة ،وكثيرًا ما كان يصبر على الجوع والظمأ هو ومن معه من الأولاد والنساء ويغلق الأبواب عليهم ، ويؤثر ذلك على الخروج والتصرف بعد أن رأى أو سمع ما يتطير منه . وقد وصف جاره الأحدب أبدع وصف ، أو رسمه على الحقيقة ، فقال :

قصرت أخادعه وطال قذاله ... فكأنـــه متربصٌ أن يُصفعا
وكأنما صُفعت قفـــاه مرة ... وأحس ثانيـة لهـــا فتجمعا

وكان إخوانه يعرفون ذلك منه ويعابثونه ، فيبعثون إليه من يقرع بابه فإذا قيل له من ؟ قال « مرة بن حنظلة » فيتشاءم ويستعيذ بالله ويقيم فى بيته لا يبرحه ، وكان على بن سليمان الأخفش أجرأ الناس عليه بذلك . وبلغ من تطيره أنه كان يقلب الأسماء فيقول مثلاً « حسن مقلوبة على نحس . ويتشاءم إذا رأى نوى تمر فى الطريق ، ويقول إن النوى الفراق ، وإن هذا يشير بأن لا تمرّ ، وإذا أصابه هو أو سواه شىء ، عزاه إلى أمر من هذا القبيل ، وحدث مرة أن صاحبًا له بعث إليه بغلام جميل يعرفه ابن الرومى ويطمئن إليه فجاء به فلما تخطى باب الصحن فى دار صديقه عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعورًا وعلل هذه العثرة بأن الغلام به عاهة

وهى قطع أنثيه . وأقام آخر مهرجانًا وكان من بين الجوارى فى ذلك اليوم صبية حولاء وأخرى فى عينها نكتة ، فتطير ابن الرومى . ثم إنه حدث بعد مدة أن سقطت ابنة الرجل من بعض السطوح فماتت ، وأن جفا القاسمُ بن عبيد الله ابنَ الرومى فرد هاتين المصيبتين إلى الجاريتين ، وكتب بذلك إلى والد الفتاة يقول :

أيهـــا المتحفى بحـــول وعور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان
فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر أرانـــا ما أعقب المهرجـــان
كان من ذاك فقدُك ابنتك الحر ... ة مصبوغـــة بهـــا الأكفـــان
وجفـــانى مؤمـل لى خليـــل ... لج منـــه الجفـــاء والهجران

وأخذ فى هذه القصيدة يثبت أن الطيرة معقولة ، ويدفع قول من قال إن النبى نهى عنها :

لا تصـــدق عـــن النبين إلا ... بحديث يلـــوح فيـــه البيـــان
خبر الله أن مشأمة كـــا ... نت لقـــوم ، وخـــبر القـــرآن
أفزورُ الحديث تقبـــل أم مـــا ... قاله ذو الجـــلال ، والفرقان ؟

وهجا مرة كاتبًا اسمه أبو طالب فحذر الناس من شؤمه :

أحذر أهل الأرض حدّا ابن طالب ... فمازال مشحوذًا على من يصاحب
وقد جُربت منه على آل مخلد ... تجارب ليست مثلهن تجـــارب
أزيرق مشئوم ، أحيمر قـــاشر ، ... لأصحابـــه نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخَ إلا وفعله ... لفعل شبيه السوء شبه مقارب
أعوذ بعـــز الله مـــن أن يضمنى ... وإياه فى الأرض البسيطة جانب
شبيهُ قدارٍ بـــل قدارٌ شبيهـــه ... وإن قيل كليم وإن قيـــل كاتب
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لونُ السيف والسيف قاضب؟
ويُدعى أبوه طـــالبًا ، وكفاكم ... به طيرةً أن المنيـــة طـــالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب ... فمن طالب مثيلهما طار هارب !

وكان ينفى عن نفسه أنه نحس ويهجو من يزعمه كذلك كما قال فى ابن موسى :

أتـــأمر بالتقزز مـــن كـــلامى ... وذكرك يُصدى الذهبَ السبيكا؟
زعمت بأننى نحـس ، وإنـــى ... مجيبك – معلنًا – لا أتقيكـــا

ويقول عن نفسه إنه ميمون مبارك ، كما فعل فى همزية طويلة وجّه بها إلى القاسم بن عبيد الله الوزير :

كل شىء أراه منك بشير ... صدّق الله هـــذه البشـــراء
وإذا مـــا مخابرُ النـــاس غابت ... عنك فاستشهد الوجـوهَ الوضاء

إلى أن يقول مخاطبًا القاسم :

أجميلٌ بك أطّراحى وقد قدّ ... مت فى رأيك الجميل رجـاء
ولىَ الطائرُ السعيد الذى كـا ... ن بريدًا بدولـــة زهـراء
ما تعرفتَ، مذ تعيفت ، طـيرى ... غير نعماء ظـــاهرت نعمـاء
ثـم أدنيتنى فـــزادك يمنى ... من أمـــير مؤيـــد إدنـــاء
وتناولتنـــى بـبر فبرتـــك ... يـد الله ثـــرة بيضـــاء
وكذا كلمـــا نـــويتَ لمـولاك ... مزيدًا أوتيتـه والهنـــاء .إلخ ..

ولقد طلب إليـه فى هـذه القصيدة أن يتخذه « عـوذة » لمجلسه فقـال :

يا لقومى! أأثقل الأرض شخصى؟ ... أم شكت من جفاء خلقى امتلاء؟
أنا من خف واستدق فما يثقل ... أرضـــًا ولا يسد فضـــاء
إن أكن عاطلاً لديك من الآ ... لات – حاشاك أن تجور غباء !
فلأكن « عوذة » لمجلسك المـو ... نق أردُد عـين الـردى عمياء !

ويقول فى بائية له إنه يخاف :

أن يقول الوشـاة بـى إن شؤمى ... جر هذا الشخوصَ والإلفك حوب

ولو وقف الأمر عند حد التطير لهان بعض الشيء ، ولكنه كان يكابد ما هو أدهى . ذلك أنه كان مصابًا بتوهم الاضطهاد واقعًا عليه من الناس ومن الطبيعة نفسها . فأما من الناس فلا نحتاج أن نورد من شعره شيئًا فقد عرف القراء أنه حافل بما ينم على ذلك ، وأما من الطبيعة فقد يكون مما له دلالة ، قوله في بائيته التي مدح بها أحمد بن ثوابة :

وصبرى على الإقتار أيسرُ محملاً ... علىَّ من التغرير بعد التجارب
لقيت من البر التباريحَ بعد ما ... لقيت من البحر ابيضاضَ الذوائب
سُقيت على رىٍّ به ألف مطرة ... شُغفت لبغضيها بحب المجادب
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيدتى ... تحامقُ دهر جدّ بى كاللاعب
إلى الله أشكو سخفَ دهرى فإنه ... يعابثنى مذ كنت غير مطايبى
أبى أن يُغيثَ الأرض حتى إذا ارتمت ... برحلى أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرضَ لأجلى فأضحت مزلة ... تمايل صاحبها تمايلَ شارب
لتعويق سيرى أو دحوض مطيتى ... واخصاب مزورٍّ عن المجد ناكب

ولعل ذلك راجع إلى اقتداره على التشخيص وإلباس المعانى صورَ الاحياء ، ولكنا نعود فنسأل لماذا يعد نفسه مقصودًا بالذات ؟

(جـ)

الطفل ، إلى حد كبير ، صورة مصغرة من الجنس الإنسانى يمر به ، باختصار ، ما مرّ بجنسه من الأطوار ، وينتقل شيئًا فشيئًا من الذاتية غير المدركة ، إلى الذاتية المدركة ،ثم إلى التفطن لما هو خارج عنها . أول ما يحسه هو ما يجرى فى جوفه ، كما تنم على ذلك حركاته التى يسعه أن يقوم بها ، وصيحاته – وهى أيضًا حركات عضلية – وكما يدل على ذلك ما يبديه من الشعور بالحالات العامة، من مثل الجوع والظمأ وما إليهما . هذا هو الطور الأول ، وهو طور ليس فيه وعى . فلا المخ يهيمن على المراكز الدنيا ، ولا ما يتولاه الحس يمكن ترتيبه وتوليد فكرة منه ،

ولا للإرادة دخل فى الحركات . ثم يأتى طور آخر تقوى فيه المراكز العليا على الأيام ،فيعنى الطفل بما يأخذه حسه ويكوّن من ذلك فكرة إلى حد ما، وتصدر عنه حركات يبغى بها غاية . وهذا الدور هو مولد الإرادة ، وبه يرتبط الشعور بالذاتية والتنبه إلى أنه فرد . غير أنه حتى فى هذا الدور تظل واعيتهُ غاصةً على الأكثر بحالات نفسه، ويبقى هو أكثر اشتغالاً بما يجرى فى جوفه منه بالعالم الخارجى . فهو مثال بارزٌ للأنانية إذ كان لا يكترث إلا لما له اتصال مباشر بنفسه وحوائجه وميوله. ثم يترقى فينضج رأيه فى علاقته بغيره وبالطبيعة ، ويتزن إحساسه بذلك ، وتتضاءل عنايته بما يجرى فى كيانه العضوى ، إلا إذا ألحت عليه ضرورة ، ويعظم التفاته إلى ما يتناوله حسه ، فتتراجع ذاتيته إلى ما وراء ما عداها ، وتملأُ صورة العالم الخارجى أكثر جوانب الواعية . ويصبح الطفل رجلاً من الأوساط العاديين الذين هم السواد الأعظم من الناس الذين تتمثل فيهم أسمى درجات الذاتية باشتمالها على ما عداها ، أى بإدراك العالم وبقهر الأنانية ، أى بالانتقال إلى ما يسمونه «الالترويزم» وهو الاهتمام بالغير بدافعٍ من العطف أوِ سواه مما يجرى مجراه ، لا رضاءً لحاجة جسمية مُلحة ، ولا إشباعًا لعضو من جوعٍ وقتى، كما هو الشأن فى الجوع وفى الغريزة التناسلية . ومن الواضح أنه لا سبيل إلى الحياة المدنية العادية بغير ذلك أى بغير الألترويزم . وكيف تكون الحياة الانسانية إذا كان الناس لا يستطيعون أن يُحضروا لأنفسهم إحساسات سواهم وأن يمثلوها لخواطرهم أيشعر بالعطف من لا يسعه أن يتصور آلام الناس ؟ أيكترث للناس مخلوقٌ لا يقوى على تخيل الأثر الذى يُحدثه ما يعمل أو ما يُغفل أن يعمل ؟ — هذا ولابد للمرء أن يدفع عن نفسه سوءَ فعل القوات الطبيعة ، وأن يستخدمها لخيره ولفائدته ، وذلك ما لا سبيل إليه ما لم يعرف هذه القواتِ معرفتها ، وما لم يستطع أن يتصور فعلها . وهذا كله يستوجب من المرء أن يكون أكثر التفاتًا إلى ما عداه . وذلك مظهر الرجل العادى فى الأغلب والأعم . عنايته بما يقع فى نفسه من الخارج ، أشدُّ وأعظم استغراقًا له من عنايته

بما يأتى من ناحية نفسه ، وواعيته أغص بصور العالم الخارجى منها بنشاط كيانه وأعضائه ، وليس له من الذاتية أكثر من القدر اللازم للاحتفاظ بفرديته . وليس كذلك الرجل الشاذ الذى يُخلق على غير طراز الأوساط ، والذى يظل طولَ عمره أشبه بالطفل من حيث علاقة الذاتية بما عداها . ومن هنا تكون المبالغة فى تقدير العمل الشخصى والغلو فى أهميته . وما من شك مثلاً فى أن الأدب من لوازم الحياة الإنسانية ، ولكن تاريخ العالم لا يدور على محوره وحده ، وهب الأمر كذلك فهو على التحقيق ليس رهنًا بشعر شاعر واحد معين . ولا ريب فى أن كل امرئ يعتز بعمله ويكبره ، ولكن الفرق بين الرجل العادى وبين الشاذ ، هو أن الأول لا يغالى بعمله ولا يعدو به قدره وأن الثانى يجاوز الحد المعقول ، ولا يستطيع أن يتصور أن واحدًا من الناس قد يخالفه فى ذلك ولا يرى رأيه فيه ، فإن فعل ، فهو خصم وعدو .

وقد كان ابن الرومى لسوء حظه — أو لحسنه ولحسن حظنا على الأصح — واحدًا من هؤلاء الشواذ . فنه الشعر . فالشعر عنده أحق ما فى الحياة بالعناية والاكبار ، وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة التى يتطلبها فنه . وهو (ابن الرومى) بصفة خاصة أحق مخلوق أو شاعر بذلك .فمن حقه على الناس أن يرزقوه إذا لم يستخدموه :

أأحييتنى بالأمس ثم تميتنى ... برفضى وإقصائى وحقى أن أُدنى !
ولو أننى أحييتُ ميتا — عشقتُه ... بحسن الذى آثرتُ فيه من الحسنى
ألا يعشق المفضالُ ميتًا أعاشه ... وأجناه من معروفه الحلو ما أجنى ؟
أذو آلة ؟ فاستخدمونى لآلتى ... بقوتىَ—أولاً، فارزقونى مع الزمنى!

وهى صرخة مؤلمة ! — ثم يجب بعد ذلك ، أى بعد أن يوفر له رزقه ولو من غير طريق الاكتساب ، أن يمكن من السماع لأن أذنه حساسة

واعية تحن إلى السماع الجميل ، ومن إرضاء حواسه الأخرى أيضًا لأنها قوية مُلحة فى طلب الإرضاء :

أدنِ شخصى إذا شدت لك بستا ... نُ وغنت غناءهـــا غنـــاء
فاستثارت من اللحـــود المغنين ... فأضحى أمواتُهـــم أحيـــاء
يا لإحضارها مـع ابـــن سريج ... معبـــدًا والغريضَ والميـــلاء ؛
وتلتهـــا « عجـــائبٌ » فتغنت ... مشبهاتِ اسمهـــا صُبابا ولاء[1]
فحكت هـــذه وتلك يمينيـــك ... إذا مـــا تبارتـــا إعطـــاء
ذا ، ولا تنسنى إذا نشـر البمتانُ ... أصنـــافَ وشبـــه وتـــراءى
وحكتك الرياضُ فى الحسن والطيب ... وإن كان ذاك منهـــا اعتـــداء
وتغنى القمرىُّ فيهـــا أخـــاه ... وأجـــابت مُكَـــاءةٌ مكـــاء
وأبدَّتـــك لحظَهـــا قضب النر ... جس ميـــلاً إليك تحكى النساء
فجمـــالٌ لمنظـــر ، وثنـــاء ... لمشم يحكـــى ثنـــاك ذكـــاء
وَاهْوَ قربى إذا شرعتَ على دجلة ... فى ظـــل ليلـــة قمـــراء
وأجاب الملاح فى بطنهـــا الملاح ... يحتث بـــالسفين الحـــداء
وادّكرنـــى إذا استثرت ســـحابا ... ذات يـــوم عشية أو ضحـــاء
فتعالت فـــوارة تحسد الخضـــراء ... إغداق مائهـــا الغـــبراء . إلخ

ولماذا

حسنُ علمى إذ ذاك بالحسن المو ... قع ممـــا يروى القلوب الظمـــاء
وارتفاعى عن الجفـــاة المسوّين ... بشدو المجـــيدة الضوضـــاء
موجبٌ أن أكون أدنـــى جليس ... لك ، أعلـــو بحقـــى الجلســـاء

(١) معبد وغريض مغنيان ، والميلاء وعجائب مغنيتان معاصرتان لبستان .

وليس هذا ، على صحته ، بالسبب الموجب على القاسم أن يجعله أدنى جلسائه ! لأن القاسم قد يكون كهؤلاء الجفاة الذين لا يميزون بين الضوضاء والغناء الجيد ، وقد لا يحب أن يؤلم نفسه بحضور من هو أفطن منه وأدق حسًّا .

وقد يحتاج أن يتزوج فيخطب لنفسه فتاة ويعين يوم الزفاف فيطالب صديقًا له بأن يعينه على زفافها :

يا سَمِيّ الخليل إيـــاك أدعو ... دعـــوة يممت سميعًا مجيبا
أَمَةٌ من إماء فضلك أجمعتُ ... على نقلهـــا إلىّ قريبـــا

وما ذنب صاحبه إبراهيم هذا ؟ قال لأنى :

ما تزوجتها على غير تأميلك ... فانظر أجـــائز أن أخيبا ؟

نقول نعم جائز ! وقد كانت له أرض كما قلنا وكان عليه أن يؤدى عنها الخراج ، فكتب إلى وهب بن سليمان يستعفيه من ذلك :

غير أن ليس فى خراجى وحدى ... مـــا بأعلاقـــه يسوغ الشراب
لك فى مكثرى الرعيـــة دونـى ... حلبٌ كيف شئت بل أحـــلاب

ولكن غيره قد يستعفون مثله فماذا يكون العمل ؟

ومتى رام رائـــمٌ كخصوصى ... قلت ما كل دعـــوة تستجاب
بل لقوم وســـائل يستحقو ... ن ، إذا ما دعوا بها ، أن يجابوا
منهم معشر ومنهـــم أنـــاس ... فضلتهم بفضلهـــا الألبـــاب
وأديبٌ له ثناء بما يسدى ... إليـــه وللثنـــاء ثـــواب
ولبعض الرجال فضل على بعض ... بمـــا نفلتهـــم الآداب
ولقد جـــاء فى الروايـــة والآ ... ثـــار أنا على العقـــول نُثاب

وهكذا . فما ثم داع للاطالة فإنه هو القائل :

حق الأديب لازم لذى الكـرم ... فإن تناسى حقـه ، فقد ظلم
أما رآه لـم يزل أعنى الخدم ... بالأدب الشعرى طورًا والحكم
مستمليًا من عـرب ومن عجـم ... منحـرفًا عن كل كسب يُغتنم ؟

كذلك لم يكن بينه وبين الناس ما ينبغى من التعاطف بل حتى ما يجعل الحياة ممكنة . وقد لا يكون هذا ذنبه إلا من ناحية أعصابه المضطربة، وذلك ما لا حيلة له فيه . أما الناس فواضح من شعره أنهم لم يكونوا يقدرون حاجات نفسه، أو يدركون مبلغ إلحاحها عليه، وعذره فيها واضطراره إليها ، فلم يستقم الأمر بينه وبينهم . ومهما يكن من الأمر فهذا هو الواقع على كل حال . وما أكثر ما ترى فى شعره مثل قوله أو قريبًا منه :

حلفت بمن لو شاء سد مفاقرى ... بما لىَ فيه عن ذوى اللؤم مرغب
لما آفتى شعرٌ إليهـم مبغض ... ولكنـــه منعٌ إليهـــم محبب
وأعجب منهم معشر ليس فيهم ... بشعرى ولاشىء من الشعر معجب
براذينُ ألهـــاها قديمًا شعيرها ... عن الشعر تستوفى القديم وتركب

أو قوله :

أنا شاك إليك بعض ثقاتى ... فافهـــم اللحنَ فهو كالاعراب
لى صديقٌ إذا رأى لى طعامًا ... لم يكد أن يجود لى بالشراب
فإذا ما رآهـــا لى جميعـــًا ... كفيانى لديـــه لبس الثيـــاب
فمتى مـــا رأى الثلاثةَ عندى ... فهى حسبى لديه من آرابى
فىَّ طبعٌ ملائكىٌّ لديـــه ... عازف صـــادف عن الاطراب
أو حمـــاريةٌ فمقدار حظـــى ... شعبةٌ عـنده بـــلا أتعـــاب
ليس ينفك شاهدًا لى بفهم ... وبيـــان وحكمـــة وصـــواب
ومتى كان فتـــح بـــاب من الله ... توقعت منـــه إغلاق بـــاب

فما ظنك بغير الثقاة ؟ وهذا يدعونا إلى الكلام على هجاء ابن الرومى :

(٤)
السخر
(أ)

كلمة فى السخر أولاً ..

ما هو السخر ، إذا ذهبنا نعتبره من فنون الأدب ؟ إن هذه الوجهة هى – بالبداهة – كل ما يعنينا . وهو بهذا الاعتبار ، العبارة – بما يناسب ذلك من الكلام – عما يثيره المضحك أو غير اللائق ، من الشعور بالتسلى أو التقزز ، على أن تكون الفكاهة عنصرًا بارزًا والكلام مفرغًا فى قالب أدبى :

ولسنا نظن أننا أحطنا فى هذا التعريف بكل ما ينبغى أن يُحاط به ، أو أقمنا كل المعالم والحدود . ولكنه على هذا كاف فى رأينا للدلالة على المراد ، فهو حسبنا إلى مدى بعيد . فالشاعر حين يسخر ، يتناول بُعدَ ما بين الأشياء والطبيعة ، ويركض فى حلبة يتقابل عند طرفيها الواقع من ناحية ومُثُلُ الكمال من ناحية أخرى . وقد يفعل ذلك جادًا أو متفكهًا مداعبًا ، أى أنه قد يستوحى إرادته ومشاعره أو يستملى عقله . فإن كانت الأولى فهو هاج منتقم ،وإن كانت الثانية فهو ساخر يركب ما بدا له بالدعابة . وإلى هنا لا يكون هذا أو ذاك أدبًا أو من الأدب فى شىء . وعسى من يخونه الصبر فيسأل : وكيف يكون هذا كذلك ؟ أتريد أن تُخرج من الأدب كلَّ ما قاله العرب مثلاً فى باب الهجاء والتهكم ؟ ألا يُعد من الشعر ما نظمه فى هذه المعانى جريرٌ والفرزدق أو دعبل وبشار وابن الرومى والمتنبى مثلاً ؟ إذا فماذا أبقيت ؟نقول كلا يا سيدى القارئ ! هوِّن على نفسك ! فما نقصد إلى شىء مما قام فى وهمك . وما أردنا سوى أن

نقول إن الشعر ليس أداةَ انتقام ولا هو عبثٌ يتلهى به الفارغون من قالته وقرائه .ومن الصعب على المرء أن لا يفسد الصورةَ الشعرية حين يهجو جادًا مستطيلاً ، وأن لا يفجع الشعرَ فى حرية الحركة ، وهى من أغلى ما فيه ومن ألزم لوازمه . وهو حين يتفكه كثيرًا ما يخطئه روح الشعر وتذاد ألحاظه عن اللانهاية .. فالأمر معضل كما ترى فكيف نشير ؟ نشير يا سيدى القارئ بهذا : بأن تخلع فى الحالة الأولى على كلامك خلعة من الجلال ، وبأن تُضفى عليه فى الحالة الثانية حلة من الجمال .

وأحسبك ستقول :

هذا كلام لـــه خبئٌ   معناه ليست لنا عقول

فنقول أى نعم والله يا صاحبى ! ولكن المسألة أبسط مما تظن فلا ترع ! وما عليك إلا أن تنفى عن ذاكرتك – إذا استطعت – ما فيها من « ضوضاء » الهجاء القارص والطعن المقذع ، وما كوّنته على أثر هذه الجلبة من الرأى الذى لعله عنَّ لك بسوء الاتفاق . ثم هلمَّ نتفاهم : وما أيسر ذلك إذا أخليت رأسك من هذه الضوضاء ، وتفضلت فتناولت رأيك ووضعته إلى جانبك لحظة . وفى وسعك أن ترده إلى مكانه من دماغك إذا لم يعجبك كلامنا !

نحن متفقان – فيما أظن – على أن السخر على العموم مبعثه مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص ، بصورة الكمال باعتبارها أسمى الحالات التى ينبغى أن يكون عليها الواقع . كثيرًا ما تكون صورةُ هذا الكمال غامضةً ملتاثة ، بل لعلها لا تعدو هذا الغموض أبدًا ، ولا تخلص من ظلامه قط إلى نور الوضوح والبيان . وعلى أنه يكفى الاحساسُ العام بها ؛ ولما كان المرء قلما يتهيأ له – أو لا يتهيأ له قط – أن يتمثل صورَ الكمال واضحة مشرقة ، فأكثر ما يسعه هو أن يلفتنا إليها ويوقظ فى نفوسنا مثل إحساسه

العام بها . وهذا هو ما ينبغى أن يجعله وكده : أى أن ينبه فينا هذا الاحساس الذى لا يستطيع أن يصوره لنا على وجه الدقة . وإلى هنا نرى أن كلامنا أوضح من أن نحتاج معه إلى إفاضة فلنخط خطوة أخرى لها أيضًا ما بعدها .

ينفر المرء من شىء واقع أو يتقزز أو يشمئز منه أو ما شئت غير ذلك من هذه المترادفات التى لا أحسن أن أرصها رصًا . فتثور عليه نفسه . ولكن لماذا ؟ ألأن الشىء فى ذاته ، ومن حيث هو ، من شأنه أن يبعث فى النفس الإحساس بالتقزز ويثيرها عليه ! لا نحسب أحدًا سيذهب إلى ذلك . وشبيه بهذا أن يقول قائل إن كلمةً معينة من الكلمات رديئةٌ ، وإن حروفها التى تتألف منها ثقيلة بغيضة ، وإنها كيفما كانت ، وفى أى كلام وردت ، لا تكون إلا قبيحة كريهة الورود على الأذن ، وهو ما لا نظن عاقلاً يقول بمثله . فالشىء فى ذاته لا يبعث على سخط أو رضى ، ولا يكون غرضًا لذم أو حمد ، وإنما يكون هذا أو ذاك حين تقيسه إلى المثل العليا ، وتجريه على صورها ، وتقرنه بها .

وهنا محل التنبيه إلى خطأ كثيرًا ما يؤدى إلى الخلط . ذلك أن المرء قد تلجّ به حاجةٌ من حاجات جسمه أو نفسه . ويلقى شيئًا مما هو كائنٌ ، عقبةً فى سبيل إرضائها فيسخط ، ولكن لا على العراقيل التى تأخذ على رغبته مذهبها ، بل على الجماعة ، وربما تجاوزها إلى الجنس الإنسانى كله ، وإلى الحياة على الاطلاق ، لما يتعلق به وهمه من أن مصادر هذا الاحساس عامة ، ولما يعزوه إليه من البواعث الأدبية السامية . وهذا هو دأب الضعاف والمتخلفين . على أن غيرهم قد لا يسلمون من هذا الخلط ، لأن القدرة على تحريك النفوس تخدعهم وتغرّهم . ومهما يكن من الأمر فإن هناك فرقًا بين أن يؤثر الشاعر باهاجة العواطف وبترك القلب تستغرقه

الاحساسات المؤلمة ، وبين أن يثير فى النفس الاحساس بالاستقلال الأدبى إحساسًا يبقى العقلُ حرًا فى اللجاجة فيه على الرغم من الاهتياج . ولا عبرة بسمو الموضوع أو ضعته ، بضخامته أو ضؤولته ، وإنما العبرة بالقاعدة التى يضع الشاعر عليها الأمرَ الواقع ، وبقدرته على تهيئة النفوس لقبول ما يُلقى إليها وينفث فيها ، وبالمنزلة التى يشرف منها على غرضه . وما دامت هذه ساميةً رفيعة فلا اعتداد بعد ذلك بالموضوع . وبعبارة أخرى يكفى أن يكون لنظرة الشاعر حظٌّ كبير من الجلال والسمو . ومن العسير التمثيل لذلك من الشعر العربى ، ولكنا مع ذلك نحيل القارئ على جيمية ابن الرومى التى قالها لما قُتل يحيى بن عمر بن حسين بن يزيد بن على ، ومطلعها :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج طريقـان شتى ، مستقيم وأعوج

وفيها يصف طغيان العباسيين وضلالهم فى الفتك بالعلويين واستهتاكهم وضعفهم إلى حدٍ استباح لنفسه معه أن يقول « لرجالهم »

فلا تجلسوا وسـط المجالس « حُسرا »

ولا تركبوا إلا ركـائب « تحدج » !

فإنه فى هذه القصيدة يُشرف على ضعةٍ من مرقب عال يرفع إليه القارئ بقوة روحه وسمو نظرته ، وهو يشعرك بمطلع القصيدة أن قتل أبى الحسين هذا قد أثار مسألة تقتضى الفصل ، ويرسم لك طريقى الضلال والواجب ، ويهيج إحساسك الأدبى بالتمرد على الانتكاس الخلقى الذى أنطقه بهذه القصيدة . ولولا أن المقام يضيق عن ذلك لأوردنا القصيدة كلها على طولها ولتناولناها بيتًا بيتًا .

وغير منكور أن الموضوع الجدى يسمو بنفسه ويساعد الشاعر الذى يتناوله . وليس الحال كذلك حين يعالج الشاعر الفكاهةَ . وأنت حين تجدُّ

قد لا يشق عليك أن تحلّق ، ولكنك حين تجنح إلى الفكاهة لا يعود من السهل أن تحافظ على الاستواء الواجب ، وأن تتقى الهبوط ، وتجنب الاهاجة ، وتكبح عواطفك ، وترخى العنان لعقلك وأن تشيع الجمال فى موضوعك لتسد نقصه وتملأ فراغه وتعوض تفهه ، ومن هنا قالوا إن غاية الفكاهة هى أقصى ما هو مقدور للإنسان . يعنون بذلك التحررَ من تأثير العواطف العنيفة ، والقدرةَ على التأمل فى سكون واطمئنان ، والنظر إلى ما يقع ، لا إلى القدر أو الحظ أو الاتفاق ، ومنحَ الحماقات والسخافات والمتناقضات ابتسامةً رضية لا عبرة متحدرة ، وكبحَ جماح الغضب عند شهود لؤم الإنسان ومعاناته . ولعل خير من يذكر على سبيل التمثيل فى هذا الباب هو « هينه » الألمانى . أنقول الألمانى ؟ كلا والله ! فما تستأثر بهينه أمةٌ ولا زمان ولا مكان ! ولقد طلق ألمانيا ولم يصر فرنسيًا ، ونبذ اليهودية ولكنه لم يصبح مسيحيًا ، وزعمه « تيك » فى قصة رمزية شيطانًا قزمًا متقلبًا مسيئًا ! ولكن أغانيه أحلى وأعذب ، واستيلاءه على ينابيع الضحك والبكاء أعظم مما شاء « تيك » أن يعترف .

ولا ينبغى للقارئ أن يتوهم مما أسلفنا الكلام عليه أن العبث جائز فى الشعر لأن الشاعر يتناول المضحكات أحيانًا ويمزح ويسخر ويركب الأشياء والناس بالهزل ، فإن هزله أبدًا مبطَّن بالجد ، وهو لا يقصد إلى الهزل فى ذاته حين يريك الهزل ويصوره لك ، ولقد كان « لوسيان » و « أرستوفانيز » يتعقبان سقراط بالنكات القاسية ولم يكن غرضهما أن يمزحا فحسب ، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من السفسطة فى رأيهما ، وأن يبرزا إلى المكان الأول ما يلقى به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا . ثم ما أجمل وأبهر الصور الهزلية التى رسمها قلم « سرفانتس » فى قصة دون كيشوت ! وفولتير ؟ ذلك الذى لم يشهد العالم ساخرًا مثله ؟

ذلك الذى كان سخره عاملاً كبيرًا فى إحداث انقلاب ضخم لا يزال أثره محسوسًا إلى هذه الساعة ! من الذى يفوق هذا الأستاذ ويبذه ؟ من الذى يشبهه فى أسلوبه ؟ إن الحكم على فولتير حكمًا فنيًا بحتًا يستدعى قبل كل شىء تجريدَه – إذا أمكن ذلك – من صفته القومية الحادة ، إذ بغير ذلك لا يستقيم الحكم عليه ولا يتأتى إنصافه وإنصاف الأدب معه ، وما من شك فى أن صدق سريرته وبساطة طبيعته تلمحان هنا وههنا فى خارجيّاته ، وتحركان فى نفس القارئ العواطفَ الشعرية حين يتوخى البساطة فى تمثيل الطبيعة وتصويرها ، كما فعل فى « الأنجينى » أو حين يغنيها ليقتص لها كما فعل فى « الكانديد » وغيرها . وهو فيما عدا ذلك يسلينا ويسرنا بملحه الطريفة ولكن ... نعم ولكن .. لا يصل إلى قلوبنا . وهذا قول قد يسخط الكثيرين من المعجبين به مثلنا ، والمغالين بقدره غيرنا . غير أنه قد يُسمح لنا أن نتهجم قليلاً ! ومن الذى لا يتهجم ؟ من الذى يلزم حده أبدًا فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ؟ أين فى الناس من لا يتطاول به الغرور ؟ وإن لنا لحظًا من الغرور قسمه الله لنا فلنقتحم إذًا !! ولنقل إنا لا نلمح المقدارَ الكافى من الجد وراء تهكمه فى كثير من المواطن . ولن يفوتك أبدًا أن تلتقى بذكائه وبراعته وحذقه ، ولكنه يعييك أن تهتدى إلى إحساسه ، وأن تطّلع على شعوره وعواطفه ، وأن تلمس قلبه . وهو دائم الحركة ، لا يفتر ولا يكل ، غير أنه ليس هناك شىء ثابتٌ وراء هذه الحركة المتواصلة ، أو نجم قطبى يصمد إليه ويتجه نحوه ، وقد أسبغ على كتاباته مئات من الكسى ، وصبها فى أشكال لا يأخذها حصر ، ولم يوفق إلى شكل واحد يضع عليه طابع قلبه ويسمه بميسم نفسه . فهو غنى الذكاء فقير القلب ، خصب المادة سخى المظهر ، ولكنه كان يمشى فى هذه الدنيا ، ويخرج فيها من درب إلى درب ، ويعرج يمينًا وشمالاً ، وينثر براعاته فى كل مكان ، ويسح بملحه وطرائفه سحًا ، وفى جوفه صحراء لا تؤنس وحشتها واحةٌ واحدة !

(ب)

من الصعب على الناقد الذى تأخر به الزمن مثلنا أن يُجرى أحكامَ ما يأخذ به من الآراء فى الأدب عامة والشعر خاصة ، على قوم طوتهم الأيامُ بخيرهم وشرهم ، وتغيرت الدنيا بعدهم ، فلو أُنشروا لأنكروها وما عرفوها . لأن الناقد لا يأمن ، إذا هو فعل ذلك ، أن لا يظلم أولئك الأقوام حتى حين يريد إنصافهم وتبين أقدارهم . ومن أجل ذلك يخيل لنا بعد الذى قلناه عن السخر اننا نوشك أن نظلم ابن الرومى ، وأن نحمله جريرة أحوال لم تكن مما جنى ، وظروف لا يد له فيها ولا حكم عليها . أو على الأقل هذا ما نرجح أن سيعتقده عامةُ القراء من عارفى هذا الشاعر أو السامعين به . ولكنا مع ذلك سننصفه من حيث يبدو أننا خفنا عليه وغمطناه .

لم يكن الشعر على عهد ابن الرومى فنًا يُزاول لذاته ، أى للترفيه عن النفس وإدخال السرور عليها من طريق الجمال . ومعلوم أن الباعث الأول على الشعر هو حدةُ إحساس المرء ودقة شعوره ، وذلك لأن كل مؤثر قوى يثير فى المرء حركات تتعلق بها المداركُ فى صورة عاطفة أو انفعال نفسى لا يزال يبغى مخرجًا ويلتمس متنفسًا حتى يصيبه فى حركة عضلية أو نحو ذلك ، فإذا كان المرء من أوساط الناس العاديين كان ذلك حسبه للترجمة عن عواطفه وانفعالاته . وصار قصاراه أن يبكى إذا حزن ، وأن يضحك إذا فرح ، وأن يثور ويتوعد إذا غضب ، حتى تفنى العاطفةُ نفسها ثم يثوب إلى نفسه . ولكن دقيق الشعور لا يكفيه هذا المتنفس لأنه أحسّ من غيره بما تطلع عليه نفسه من الظواهر ، وأعمق مع دقة الحس شعورًا . وليس يخفى أن دقة الاحساس وعمق الشعور يطيلان أجلَ العاطفة ، ويمدان فى عمرها ، ويفسحان فى مدتها وبقائها ، فإذا استولت عليه عاطفة لم تزل تجيش وتضطرم حتى تقر وتنتظم ، ثم تتحول فكرة قاهرة

تظل تجاذبه وتدافعه حتى ينفس عنها عمل يناسبها – هذا هو الفن لذاته فحسب . ولو أنك أردت أن تجد لهذا ضريبًا فى عصرنا يقرب إليك المسألة ويصورها – على قدر الامكان – لكان بك أن تبغيه بين جدران المدارس . ولقد قدمنا لك فى مقال سابق أن خصائص الآباء تظهر فى الطفل ، وإنه يعيد فى شخصه تاريخ التطور النوعى كله . فاذهب إلى المدرسة إذن فماذا تجد ؟ تجد هناك فى ذلك الركن من « الفصل » – كما يسمون مكان الاجتماع لتلقى الدروس – تلميذًا مكبًا على غلاف الكتاب ، وفى يده قلمٌ يرسم به خطوطًا قليلة ساذجة يطالعك منها شىء كالوجه . وأظهر ما فيها شاربان ضخمان طويلان مفتولان لا نسبة بينهما وبين بقية الصورة ، إذا جاز أن تسمى هذا التخطيط صورة . فماذا تظنه يعنى ؟ ما هو الغرض الذى صار أمثل فى خاطره وأحضر فى ذهنه حتى فعل ذلك ؟ لا ندرى ! ولعله هو أيضًا لا يدرى على وجه الدقة . غير أن الأرجح فى الرأى والأقرب إلى الاحتمال أن يكون قد قصد أن يرمز إلى الرجولة التى يتطلع إليها ويحلم بها ، فزاد فى الشاربين وبالغ فيهما على نسبة عكسية لتجرده منهما ، إذ هو لا يزال أمردَ لم يطرّ له شارب ولا نبت فى عذاريه شعر . والشوارب أدل على الفتوة ، وأدنى إلى معانى القوة من اللحية . وتلميذنا إنما يريد أن يرمز إلى سن القوة والفحولة التى تأنس إلى الشوارب ولا تُطيق اللحى التى لا يطمئن إليها المرءُ إلا مع فتور الحيوية .

وثم فى مكان آخر من « الفصل » تلميذٌ ثان يحفر على غطاءِ « درجه » يدًا ممسكة عصا ضخمة ، فماذا ترى جرى بباله حين حفر خطوط هذه وتلك بمبراته ؟ لعل معلمه أذاقه طعمَ العصا فخامره الاحساسُ بها ، ولم تزل تدور فى نفسه رهبةُ هذا السلطان الذى يدل عليه وقعُ العصا ، فأجرى مبراته على الخشب بهذه الخطوط التى تمثل له المظهر المؤلم البارز لهذا السلطان . وهناك فى مكان ثالث صبيٌّ آخر يدنو منه المعلم فتتحرك يده فى خفة وسرعة لتخفى فى جيبه ورقةً ، ويلمحه المعلم فينتزعها منه فإذا

فيها صورة أنف كبير كخرطوم الفيل ؟ فماذا يا ترى فى هذا أيضًا ؟ ماذا يريد فتانا بهذا الأنف الذى كأنما عناه ابن الرومى بقوله :

حملتَ أنفًا يراه النـــاس كلهـم ... من رأس ميل عيانًا – لا بمقياس !
لوشئت كسبًا به، صادفت مكتسبًا ... أو انتصارًا مضى كالسيف والفاس!

لعل هذا الأنف رمزٌ لمعلم يتضاحك به التلاميذ ، ولا يقوى هو على حكمهم لضعف فيه أو قلة حزم أو لأن شكل أنفه على وجهه أغرى للتلاميذ ، بالضحك من أن تجدى معهم شدة أو حيلة ! وثم ، فى مكان آخر من « الفصل » أيضًا ، تلميذٌ ناهز الثالثة أو الرابعة عشرة يتناول المدرس كشكوله – كراسة الأعمال اليومية – فإذا هو قد ملأه بما يشبه أن يكون صورَ أجسام عارية : فى صفحة صورة فتاة أظهر ما فيها شعرها المنسدل على كتفين يبرز من تحتهما ثديان ناهدان ، وفى صفحة أخرى رسمٌ أبرز ما فيه ضخامة الردفين وانسجام الساقين تحتهما ، وفى صفحة ثالثة من كشكول تلميذنا رسم قدمين صغيرتين فى حذاءين جميلين . وهكذا .. فإلى أى شىء يرمز هذا الصبى الجرىء ؟ ماذا يعنى بهذه الرسوم وبالاشتغال بها عن الدروس ؟ لعله هو نفسه لا يفهم السر ولا يستطيع أن يشرح لك الدافع . ولكن المدرس ، إذا كان لبيبًا فطنًا ، يدرك أن هذا التلميذ أكبر من زملائه قليلاً ، وأنه لا يبعد أن يكون قد بدأ يبلغ مبالغ الرجال ، وأنه يعبر بما يخطط عن إحساسه الجنسى الغامض الذى أخذ يدب فى جسمه ويتمشى فى نفسه ويلفته كرهًا إلى المرأة ومواضع الملاحة فيها وبواعث الافتتان بها ودواعى الرغبة فيها ..

فلماذا يفعل التلاميذ ذلك ؟ نظن أنه لا خلاف فى أنهم إنما يرمزون بما يخطون – إذ كان لا يسعنا أن نقول بما « يصورون » – لكل ما له فى نفوسهم وقعٌ وأثر . ولا يفعلون ذلك طلبًا للثناء ، أو التماسًا لحسن

الأحدوثة وخلود الذكر ، لأن دأبهم أن يخفوا هذا الذى يصنعونه ، ولا يدعون عينًا أجنبية تطلع عليه . وكل ما فى الأمر أنهم دلوا بما خططوا على ما له تأثير فى نفوسهم أو ما يشغل خواطرهم . فكانوا بذلك مثالاً مصغرًا لمزاولة الفن لذاته .

وهناك طور آخر يتلو هذا ويكون الشاعر فيه قوامَ النظام الاجتماعى ، ونصير الدين أو الملك أو الرئيس أو الوطن أو لسان العصبية . وهو طور خلا به فى الواقع عصرُ القبائل عند العرب ، أيام كان الشاعر عضدَ القبيلة ونصيرها وفارسها وحاجبها وجلادها والداعى إلى خوفها وخشية بأسها ، والمشيدَ بذكرها والمدونَ لمفاخرها وأيامها ، أو بعبارة أخرى أيام كان العرب « لا يهنئون إلا بمولود يولد وفرس تنتج وشاعر ينبغ » : بالمولود ليشب منه فارسٌ يذود عن القبيلة ، ويحمى حقيقتها ، ويدفع عن بيضتها ، وبنتاج الفرس ليركب فى الحرب ، وبالشاعر ليذيع محامد القبيلة ، ويهجو عداتها ، ويدون تاريخها ويسجل أيامها . ولم يكن الأمر كذلك على عهد ابن الرومى . نعم كان الشاعر لا يجد سوقًا تنفق فيها بضاعته إلا بين الملوك الحكام والأمراء والأشراف والموسرين ، إذ كان هؤلاء وحدهم القادرين على تنويله وصلته ، والإحسان إليه جزاء إحسانه إليهم وإلى فنه . وما كان هؤلاء ليلقوا بأموالهم من النوافذ ، فإذا وصلوه وأجدوا عليه فإنما يفعلون ذلك ليخلدهم فى شعره ، ولينتقم لهم من خصومهم ومنافسيهم وحسادهم . ولكن حالات الاجتماع كانت قد تغيرت قليلاً ، وتبدلت مراتبُ الناس وعلاقاتهم ومساعيهم غير ما كانت . والشعر كغيره ظاهرة اجتماعية ، فكيف ينجو من هذا التطور الذى طرأ على ظروف الاجتماع ؟ كان قضاةُ الكلام وفيصله ، الشيوخ والرؤساء أو الملوك والوزراء والأمراء ، فظل هؤلاء ، ولكن ظهر إلى جانبهم العلماء والأدباء والرواة والنقاد ، وبدأ

الجمهور يبرز بعد الخفاء ، ولم يكن ينقص الشعرَ إلا أن تظهر المطابعُ ووسائل النشر التى جدت بعد ذلك ، وفى غير ذلك الزمن ، وفى أمم أخرى ، ليستقل هذا الفنُّ عن الملوك والأمراء والرؤساء ، وتدول دولة تحكمهم فى الشعر وأغراضه ومناحيه ، وليتحرر الشعراء ويخلو لهم الجو ، ولتصبح الصلةُ بينهم وبين الجمهور مباشرةً لا يعترضها شىء كما هى الآن مثلاً . وهو ما لم يشأه الله للشعر القديم .

إذن فقد كان ابن الرومى فى طور انتقال ؟ نعم . وبذلك يشهد شعره . وليس فى عزمنا أن ننقل هنا كل ما يدل على ذلك وسنجتزئ بأمثلة قليلة . منها قصيدته الرائعةُ لما اقتحم الزنجُ البصرةَ وأعملوا فى أهلها السيفَ ، وفى مساكنها ومساجدها النارَ ، فقال ميميته الفريدة فى لغة العرب ، واستنفر فيها « الناس » — الناس أى الجمهور لا الخليفة ولا وزراءه ولا الأمراء . وجعل يستفز نخوتهم فيها بوصف البصرة وعزها وفرضتها (مينائها) ثم بالأهوال التى حلت بها من غارة الزنوج ، والفظائع التى اجترحوها ، والحرمات التى استباحوها ، ثم بتصوير الخراب الذى حل بها ، والهوان الذى أصابها ؛ ثم بتصوير الموقف فى الآخرة حين يلتقى الضحايا والقاعدون عن نجدتهم « عند حاكم الحكام » وتأنيبه سبحانه لهم على خذلانهم إخوانهم ؛ ثم باهابته « بالناس » أيضًا أن يمثلوا لأنفسهم النبى ﷺ ولومه أمته ؛ ثم استنفارهم بعد كل هذه المثيرات والحوافز إلى إدراك الثأر وإنقاذ السبى . وهى قصيدة فى الطبقة الأولى من الشعر ، لو غيرت ما فيها من الأسماء والمحليات لخيّل إليك أنها مما قال بيرون فى سبيل استقلال اليونان أو توماس هاردى فى إبان الحرب العظمى . وإنه ليؤسفنا أنها أطول من أن تنقل ، وأنها لا تحتمل الاختيار ولا تقبل الاختصار . فليرجع إليها القراء فى الديوان ليروا كيف عدل بالخطاب عن مياقه المألوف

فى ذلك العصر ، ولم يعبأ لا بالملوك ولا الأمراء ، ولم يفرض أنهم هم وحدهم المطالبون بالدفاع والنجدة ، بل اتجه إلى جمهور الناس بصفته فردًا يقدر ما عليه وما على الأفراد مثله من واجبٍ قوميّ دينيّ لا يخليه هو أو سواه منه شيء . وإنه لعجيب أن تخلو القصيدة من كل ذكر أو إشارة ، صريحة أو خفية ، للحكام . وليس يسع القارئ إلا أن يذكر بها ما كان يستفزّ به الكتابُ والشعراء والجماهير فى أممهم فى إبان الحرب العظمى الأخيرة .

ومن الأمثلة أيضًا أسلوبه الروائى الذى يطالعك من أكثر قصائده ، وعدم اقتصاره فى الوصف على الظواهر المحسوسة ، ومحاولته الافضاء إلى البواطن وتصويرها ، وتتبعه لحالات نفسه ولما يتقلب عليه ويمر به ، حتى غلب ذلك على شعره على الرغم من الأغراض الأخرى التى كان ينظم فيها الشعرَ من مثل المدح والهجاء والعتاب والاستعطاف وغير ذلك .

وليس يخفى علينا أن هذه من خصائصه هو ، ومميزاته التى انفرد بها ، ولكن من الذى يستطيع أن ينكر أن ما تبتكره الشخصياتُ الممتازة يكون من عوامل التطور التى لا يمكن إغفالها ؟

وبعد ، فإذا كان فى أهاجي ابن الرومى كلامٌ لا يعد من الشعر الصحيح بمعناه الإسمى ، فذلك على الأكثر ذنب عصره الذى كان يقبل ذلك ويتسع له ويُغرى به فى الواقع ، كما هو الشأن فى أفحاشه وعرره التى لا تطاق فى عصرنا الحاضر مثلاً . ونقول على الأكثر ، لأن ابن الرومى كان حادَّ المزاج سريع الغضب متمرد الطبع . فعصره ، من ناحية ، كان يُبيح له أن يُفحش وأن يأتى بالشناعات ، ويخرج بالشعر عن سبيله ، ويعدل به عن غايته ، ويتخذه فى بعض الأحايين أداة انتقام شخصى فظيع . ولكنه لا يعيبك ، حتى فى أفحاشه ، أن تلمح باعثًا خلقيًا ساميًا يُخرجه عن طوره . فقد كان الرجل على كثرة أضاحيكه جادًا فى حياته وفى النظر

إليها . ولم يكن لهوه وعبثه إلا لفرط إحساسه بمرارة الجد فى هذه الحياة ، ويشعرك بذلك قوله ، وهو حسبنا شاهدًا مغنيًا عن كثير أمثاله :

كيف العزاءُ وما فى العيش مغتبط ... ولا اغتباطَ لأقـــوام يموتونا
متى نعش ، فبِلى الأحياء يدركنا ... وإن نمت ، فبلى الأموات يقفونا
لابد من ميتة للمـــرء أو هـرم ... يظل منـــه جليدُ القوم موهونا
والبيض والجون لانهوى فراقهما ... ولا نزال نذم البيض والجونـــا
وكل لهو لهـــاه النـــاس مشغلةٌ ... عن ذكر ماهم من الأحداث لاقونا

وهو على كثرة ما فى شعره من الفحش ، صحيح الإدراك من حيث الآداب والأخلاق . ومن شاء أن يقدر مبلغ ما رُزق ابن الرومى من صحة الإدراك الأخلاقى فما عليه إلا أن يدع ما يراه فى كلامه من التنزى إلى المقابح وأن يبحث عن البواعث التى دفعته ، والأسباب التى أغرته ، فإنه لا يلبث أن يتوسم من معاريض كلامه ، ويستشف من وراء لفظه ، صحةَ مبادئه وعظم نصيبه من سمو النفس وجلالة الروح .

أما أهاجيه الفكاهية فمن أبدع ما له . وهو فى أكثرها مصوّر كعادته « لا تنقصه إلا الريشة واللوحة . بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض من الريشة بالقلم ، ومن اللوحة بالقرطاس ، فاكتفى بهما وأثبت فى النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال » كما يقول صديقنا الأستاذ العقاد . فمن ذلك قوله فى بعضهم :

ويحَ ابن يوسف! ليت الويح عاجله ... فما يدانيـــه فى بلواه أيوب
طول وعرض بلا عقل ولا أدب ... فليس يحسن إلا وهـو مصلوب !

ولو غيره من الضعاف لعدل عن « المصلوب » إلى ما هو دون ذلك .

ومنه وصفه للأحدب ، وقد تقدم ، وقوله فى أبى حفص الوراق وكان قصيرًا :

وقصير تراه فوق يفاع فتراه كأنه فى غيابه
لم تدع قفدَه يدُ الدهر حتى قمعت فيه طوله وشبابه
وجلت رأسه – نعمّا – فأضحى بارز الصرح ما يوارى صوأبه
يا أبا حفص الذى فطن الدهر لميدان رأسه فاستطابه
ظرف الدهر فى اتخاذك صفعا نًا وما خلته ظريف الدعابه

وقوله فى بخيل :

غدونا إلى ميمون نطلب حاجة فأوسعنا منعًا جزيلاً بلا مطل
وقال : اعذرونى إن بخلى جبلّة وإن يدى مخلوقة «خلقة القفل»

إلى كثير من وصفه للأقفاء واللحى والعثانين والمواقف المضحكة كقوله :

إن أبا حفص وعثنونه كلاهما أصبح لى ناصبا
قد أغريا بى يهجوانى معا وحدى ، وكان الأكثرُ الغالبا
أقسمت ما استنجد عثنونه حتى غدا لى خائفًا هائبا
إن كان كفؤاً لىَ فى زعمه فليعتزل لحيته جانبا !

وشبيه بهذا الموقف المضحك قوله فى متفلسف دعىٍّ يتسقرط ويزعم نفسه فارسًا كميًا :

أطلقْ الجرذانَ بالليل وصح : هل من مبارز ؟ !

وقوله فى بخيل أو من يزعمه ابن الرومى بخيلاً :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد !!

وليلاحظ القارئ أنه لا يخلط بين مجال المصور ومجال الشاعر ، ولا يحاول أن يجعل قلمه ريشةً ، فإن ذلك لا خير فيه ولا ثمرة له ، ولكن يجئ لك بما هو حرى أن يعينك على تصور ما يريد . وآية ذلك أنه حين أراد أن يصف قصر أبى حفص وضعه على يفاع أو مرتفع ليساعدك على تقدير النسبة ، وذكر لك أن « صرح » رأسه مجلوٌّ ، وأنه من الصلع بحيث لا يوارى بيض قملة ، لأنه لا شعر هناك ، وأن صفع الدهر له قمع طوله ! وتأمل كذلك تصويره معنى البخل بقوله إن اليد مخلوقة خلقة القفل ! ولعمرى ماذا يسع المصور بريشته فى مثل هذا ؟ إن البخل ليس مما ينطق به الوجه ، ورسمُ اليد مُطبقة لا يدل عليه ولا يفيد الناظر شيئًا . فهو كما ترى مصور ، ولكن فى حدود فنه وفى الدائرة التى تعينها قدرةُ الألفاظ .

(٥)

فلسفته

(أ)

هل لابن الرومى فلسفة تستخلص من شعره الذى كان يهضب به ويسح ؟ أو إن شئت ، وكنت مثلنا لا تقوى أضراسك على مضغ الجلاميد التى يطلقون عليها اسمَ الفلسفة أحيانًا ، فقل هل له مذهب فى هذه الحياة ؟ وكيف كان إدراكه لسننها ، وإحساسه بصروفها ، ومجاوبته لوقعها ، وملابسته لحالاتها ؟ وهل أركض عقله فى ميدانها وأطلق خياله فى سمائها ؟ وفى الجواب على ذلك ، الحكمُ على ابن الرومى . فإذا كان الجواب نعم ، وكان الرجل عندك صاحبَ نظرة خاصة إلى الحياة ، فقد سلكته مع الفحول . وإن كان لا ، وأحج أن لا يكون كذلك ، فقد هبطت به إلى منزلة الظرفاء الذين يلتمسهم المرءُ أحيانًا وينضو عند عتبتهم الجد والتفكير ، ويحاضرهم محاضرة المترفِّه المتلهى ، كما يداعب الشيخ

الوقور فتاه الحدث ، ويمسح له جبينه ، ويلمس كفه صباحة محياه الجديد ونضارة متوسمة القشيب ، ويجرى معه لسانه بالكلام الخفيف ، ويضاغيه ويلاثغه ويمتع سمعه وعينه بسذاجته وبجهله الحلو وغفلته اللذيذة !

ونعتذر إلى ابن الرومى من هذا السؤال — لو أنه يعى اعتذارنا أو يحفل ما نقول فيه ! — وأكبر الظن أنه لو كان حيًا ، ورآنا نسأل ألهُ مذهب أو رأى فى الحياة ، لأخبّت إلينا وأوضعت أهاجيه النارية :

من كل سائرة بذلك يرتمى بركابها الأغوار والأنجـاد

فالحمد لله الذى أماته قبل أن يُحيينا ! فما نظنه كان يشفع لنا عنده أنا نُشيد بذكره وننشر مطويه وننصف عبقريته .

كلاّ ! لا مراء فى أن ابن الرومى من كبار الفحول ، وأنه كان يحس الحياة بكل جارحة فيه ، بل يقبل على الحياة وينشد الإحساس بها ويعرّى أعصابه لها ، ليتملى من الشعور بها يلابسها بروحه ، ويدير عينه ويقلبها تارة فى نفسه وتارة أخرى فيما حوله ، ولا يمل التأمل ، ولا يفتر عن التدبر ، ولا يكف عن المقايسة والمقابلة ، وعن إرسال النظر رائدًا واجالة الفكر حاصدًا . وبماذا خرج ؟ قد لا يرضيك ما انتهى إليه واستقر عليه . ولكن ما قيمة ذلك ؟ إن الشاعر ليس مطالبًا بأن يقدم لك مذهبًا فلسفيًا جامعًا مفصل الحدود واضح المعالم ، ولا بأن يحسر لك ظلالَ الابهام عن مشكلات الحياة ، ويزيح حجبَ الظلام عن أسرار الوجود . بل حسبنا منه أن تكون له فكرةٌ عن الحياة بخيرها وشرها ، وسعودها ونحوسها ، وقوانينها ومظاهرها ، وأن يفضى إليك بوقعها الذى لا مهرب منه ولا متحول عنه ، والحياة ، بعد ، لها أكثر من وجه واحد ومظهر واحد وليست صفحتها الغامضةُ السوداء التى يفتحها لك الشاعر بأقل فتنة أو أضأل نصيبًا من الصواب ، من صفحتها الواضحة البيضاء التى ينشرها لك الفلاسفة

والعلماء . فإذا كان لا يروقك ما خطه ابن الرومى فى صفحته ، واطلعك منه على جانب من تاريخ الإنسانية ، فإن فى الحياة كثيرًا مما لا يروق ولا يعجب ، وهو مع ذلك من لوازمها . ولقد سبق من ابن الرومى الاعتذار من ذلك بأن سأل « أما ترى كيف رُكب الشجر ؟ » .

رُكب فيه اللحاءُ والخشب اليا ... بس والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... ربُّ الأرباب لا البشر

وكان ابن الرومى يرى أن الأدب فن يُزاول ويتعهد ويكون المرءُ له « أعنى الخدم » وينقطع له ويتوفر عليه وينحرف بسببه عن كل كسب ، ويبيت « يمرى فكره تحت الظلم » وأن للأديب من أجل ذلك حقًا على الناس وحرمة واجبة الرعاية ، وقدمًا تستحق أن تُثاب ، وأن من تناسى حقه فقد ظلم . فليس الشعر عنده عبثًا ولا لهوًا ، بل هو غاية الجد ، وليس مطلبه بالسهل الهين بل هو مغاصٌ فى درك اللجة « من دون درها الخطر » .

وفيه ما يأخذ التخير من غا ... لٍ ثمين ، وفيه ما يذر

وهو فن حى ينشأ ويشب ويهرم ككل حىٍّ آخر :

والشعر كالعيش ، فيه ... مع الشبيبة شيب

ولا نُكران أنه قال فى آخر حياته :

حتّام يا سائس الدنيا تؤخرنى ... وإننى لنظير الصدر لا الكفل
لكل قوم رسومٌ أنت راسمها ... ولست فيهم بذى رسم ولا طلل
لا فى التجار ولا العمال تنصبنى ... وإننى لقليل المثل والبدل

ولكن ذلك لم يكن لزراية على الأدب ، أو اغتماض لقدره بل هى لهفة على سوء حظه المادى . وكيف تعقل منه الزراية على فنه وهو فى القصيدة عينها يقول :

فى «دولتى» أنا مغصوب وفى زمنى ... عودى ظمئ بلا رى ولا بلل !

ومن أين جاءته « الدولة » وصار له « زمن » بغير شعره ؟ وحسبك شعوره هذا بأن له دولة وزمنًا ، دليلاً على إكباره فنه . وليس هذا بالخاطر العارض ، فإنه المتسائل فى معرض هجاء لأبى اسحاق البيهقى :

أبيهقيٌّ يقول الشعر فى زمنى ؟ أولى لـه ، مـا لمثلى تنبغ النبغهْ
وما امتهانى به شعرى ، وخلقته تهجوه عنى وعن غيرى بكل لغه ؟

ولم يكن يقول كالعرب إن أمتهم أشعر الأمم ، وحكمتها أعظم الحكم ، بل كان يقول :

قد تحسن الرومُ شعرًا ما أحسنتـــه العريب
يا منكرَ المجد فيهـم أليس منهـم صهيب ؟

وصهيب هذا ، ابن سنان ، صحابى أصله رومى وأسلم ، وفى نظرته هذه اتساعٌ وانصافٌ وخلو من عصبية كانت تكون منه متكلِّفة غير سائغة :

وهو كما أسلفنا رجل متشائم . وعنده أن الطفل إنما يبكى « لما تُؤذن الدنيا به من صروفها » وإنه لذلك :

إذا أبصر الدنيا استهل ، كأنه بما سوف يلقى من أذاها يُهدد

ويعلل ذلك بأن للنفس أحوالاً « تشاهد فيها كلَّ غيب سيُشهد » وكأنه يريد أن يقنعك بأن هذا الرأى هو ثمرة التجربة ، وأنه لا يرمى به جزافًا ، ولا يلقيه على عواهنه ، ومن أجل هذا يمهد له بأنه إنما يذهب إلى ذلك بعد أن شابت رأسه ، وقوست قناته ، ودب الكلال فى عظامه ، وتوكأ على العصى . ولا غرابة بعد ذلك أن الدنيا عنده :

دارٌ غـريب خيرهـــا وترى الشرورَ بها مُر به
أدوت وغاب دواؤهـــا عـن كل نفـس مستطبه

والمرء منذ يولد إلى أن يوارى فى التراب « رهن النوائب » وحسبه من هذ النوائب فقدُ شبابه :

ولو لم يصب إلا بشرخ شبابه لكان قد استوفى جميعَ المصائب

وما دام المرء يموت فليس فى العيش مغتبط ، وكل هو مشغلة عن ذكر ما يلاقيه المرء من الأحداث . وكيف يطيب العيش للإنسان وهو موقن بأن طيبه سيذهب كالحلم ؟

ومن كان فى عيش يراعى زوالَه فذلك فى بؤس وإن كان فى نعم

وكر الأيام انتقاصٌ من القُوى . حتى الأبناء تخوُّنٌ وتنقص من المرء يُزاد فى « الأبد » ويضاف إليه ، وهم عبارة عن قوى تستجدها الحياة بأن تنقضها من الأباء ، والمرء يسر بمولوده وهو لا يدرى أن الزمان يهده بشد مُنه أبنائه .

ومن العجائب أن أُسر بمـــا يُشد بأن أُهد !

ولكن هذا ليس بعجيب إذ لولاه لما طلب الناس الذرية .

والمرء إذا أمل أن يعيش مثل ما عاش « فيا ويحه إن خاب أو أدرك الأمل » لأنه إذا طال عمره اكتهلت همته ولم يعد يجد ابتهاجًا بما كان يبتهج به ،أو قدرةً عليه أو بشاشة له :

وحسب من عاش من خلوقته خلوقةٌ تعتريـــــه فى أربـــه

وإذا فاتت المرء متعةٌ فهو غير مغبون فى الواقع ، لأن من يدرك شيئًا لايزال قلقًا خائفًا يترقب افتقاده . أما من فاتته متعة فهو مطمئن وقد أمن أن يُرزأها :

وكفى عزاءً لا مرئ عن فائت أن لا يخاف عليه صرفَ زمان

ومتى كان الأمر كذلك :

فـــلا تغبطن المترفـين فإنهـم على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

وسليم الزمان كمنكوبه ، وموفوره كمحروبه ، والممنوح مثل الممنوع . والمكسوُّ مثل المسلوب :

ومحبوبه رهن مكروهه ، ومكروهه رهـن محبوبه
ومأمونه تحت محذوره ، ومرجوه تحت مرهوبه
وريب الزمان غدًا كائن وغالبـه مثل مغلوبـه

فإذا غصبك الزمانُ حظك فاستر نفسك فإن هذا الستر لا يُغصب . ولا مفر على كل حال من القدر ، فطامن حشاك فإن ما تحب وما تكره واقعان بك لا محالة :

وإذا أتاك من الأمور مقدر وهربت منه فنحوه تتوجه

والسعادة والشقاوة حظوظ . والحظ يأتي صاحبه وادعًا ، ويُعيى سواه ساعيًا :

إذا كان مجرى كوكب سمتَ هامةٍ علاها ، وإلا اعتاص ذلك مطلبا

والذى يسعى ليدرك حظه « كسار بليل كى يسامت كوكبا » .

ولو لم يسر ، وافاه لاشك طلبه بغير عنـاءٍ بادئًا ثـم عقبا

ولا يحسب أحد أن ابن الرومى راض عن ذلك . وكيف يرضى عنه وهو لا يرى مطلب الدنيا يهون إلا للجهلاء والحمقى ؟

فليس ينفك ذو علم وتجربة من مأكل جشب أو مشرب رنق
وذو الجهالة منهـا فى بُلهنيةٍ من مسمع حسنٍ أو منظـر أنق

وهل يعد راضيًا من يقول :

تبارك العدل فيها حين يقسمها بين البـرية قسمًا غـير متفق !

وقد أنحى فى قصائد شتى على الحظوظ ، وعزى نفسه مرة بأن الصخر راجح الوزن راس ، وأن الذر شائل الوزن هاب ، ومرة أخرى بأن الجيف المنتنة هى التى تطفو على اللجة ، أما الدر فيكون تحتها فى حجاب ، وطورًا

بأنه لا وجه للعجب والألم من تخطّى الحظ لأصيل الرأى لأن الله خلق الناس بلا وبر وكسا البهائم « أوبارًا وأصوافًا » ! وطورًا بأن هذه الدنيا ليست سوى جيفة ميت :

« وطلابُها مثل الكلاب النواهس » !

وأنه لا محل لتفاضل الناس « بتفاضل الأحوال والأخطار » فإن هذا جور .

وإذا كانت الدنيا كذلك ، وكان الشر فيها غالبًا ، فالحذر واجب والحزم فرض ، ليقل التجنى على المقدور . وعلى المرء إذا ظن شرًا أن يخافه ! فرب شرٍ يقينه مظنونه .

كم ركونٍ جنى عليك حذارا من أطال الركون قلّ ركونه

ولا تبيتن آمنًا من أحد ، فآمن ما يكون المرء إذا ليس الحذرَ من الخطوب .

ومن أمن النفس أن تخاف ، وأن تستشير الحزم ، والعدو مستفادٌ من الصديق .

فإن الـــداء أكثر مـــا تراه يكون من الطعام أو الشراب

ومن الحكمة أن لا يقذع المرء الحاكم فى أيامه ، خوفًا لسطوته بل حتى إذا أصابه الزمن بصرفه ، حذرًا من رجعته .

فليعلم الرؤســـاء أنى راهب للشر ، والمرهوب من أسبابه

واعلم أن الناس من طينة خسيسة « يصدق فى الثلب لها الثالب »

لولا علاجُ الناسُ أخلاقَهم إذن لفـــاح الحمأُ اللازب

وأديم الإنسان من أديم الأرض ، فهو مثلها خسيس ، والنفس تلؤم رجوعًا إلى طينتها ، واللؤم مركوز فى الطبع البشرى ، مركب فى الجبلات :

ولابد من أن يلؤم المرءُ نازعًا إلى الحمأ المسنون ضربةَ لازب

حتى النفس الكريمة لا مفر لها من رجعة إلى هذا الحمأ المسنون « ثم تكرم » . والشر بين الناس عام مشترك ،وهو الأصل ، أما الخير فيهم فغير مشترك . والضعيف فى الدنيا موطأ مهين ، والقوى محترم مرهوبة شرَّته . والخير المسالم أو المقلم الأظفار لا يعبأ به أحد أو يحسب له حسابًا .

لا بدع ! إن الحرب مرقوبة والسلم لا يرقبـــه راقب

ولهذا كان الحلم ضعفًا ، وكانت رقابُ أهله مقصودة بالهوان ، فلابد من ادّراع الجهل فوق الحلم ، وإلا اعتُمد المرء بالإساءة واستخف به الناس واستطاعوا عليه .

من صونك الحلمَ أن تدرعه الجـ ـهل فظـاهرْ من دونـــه زرده

وأكثر الناس يتسخُّون طلبًا للحمد ونفاقًا ، ويتكلفون الندى ولكن الكريم ليس الذى يعطى عطيته عن ثناء أو التماسًا للذكر

بل الكريم الذى يعطى عطيته لغير شىء سوى استحسانه النفلا

ومن كان هذا شأنه فهو لا يبذل العرفَ ليصيد به محمدةً ولا يمنُّ على من يقلده منته .

والإحسان الذى من هذا الضرب آنسُ للقلوب ، والنفس إذا تذكرت أياديَها الخالصةَ لوجه الله « أفاقت من معالجة الكروب » . والنعمى قيد ، ولكنها إذا قوبلت بالشكر زال القيد ، وتكافأ المنعم والشاكر ، لأنه إذا كان المنعم قد جاد بماله أو جاهه ، فقد جاد الشاكر من فؤاده .

ولقد كافأ بالنعمى امرؤ كافأ النعمى بإخلاص الوداد

ولا ينبغى أن تكون الفضائل باعثها الرغبة أو الرهبة .

أأحب قومًا لم يحبوا ربهم إلا لفردوس لديـــه ونار ؟

والحلف الكاذب جائز عنده مع الاضطرار وضيق الحال :

وإنـــى لذو حلفٍ حـــاضر إذا ما اضطررت وفى الحال ضيق
وهـــل من جنـــاح على مرهق يـــدافع بالله مـــا لا يطيـــق ؟

والحشمة محبوبة بين الصديقين لتحجز بينهما وبين العقوق ، أما التبسط الذى يؤدى إلى بخس واجبات الحقوق فلا حبذا هذا وأقبح به !

* * *

(ب)

قد بلغنا ، ولا حمدَ ، أعوصَ مسائل ابن الرومى . ونعنى بها نظراته فى فلسفة الجمال . وليس وجهُ الاعتياص أن فى شعره غموضًا أو التياثًا أو اضطرابًا يدفعك إلى الشك فى تأويل نظرته ، أو التردد فى حملها على ما يغريك به بعضُ كلامه . كلا ! فإن ابن الرومى شاعر مشرق الديباجة ، ناصع الأسلوب ، واضح المحجة ، وهو غوّاص لا يستخفه ما يعن له فى أول الخاطر ، ومصفٍّ يأبى أن يدع ذرة تتفلت ، ودقيق دوّار العين يطلب الإحاطة بجوانب ما يتناول ، وملحاحٌ لا يجترئ بأن يدفع إليك الفكرة ناضجة تامة ويدعك وشأنك معها ، بل يبرزها لك كلما عرضت مناسبةٌ ليقسرك على الالتفات إليها والعناية بها ، حتى كأنه لا يطمئن إلى ذكائك وقدرتك على الالتقاط والتفطن . وإنما وجه العسر والمشقة هو كيف نتناول الموضوع ؟ ومن أية ناحية نطرقه ؟ وماذا نأخذ وماذا نذر ؟ ومما يضاعف المشقة أننا لا نحب أن نظل نكتب عن ابن الرومى إلى آخر العمر ! وأحرِ بأن لا نقرغ منه إذا أردنا الاستقصاء . إذ كان معنى الاستقصاء أن نضع نحن كتابًا ضخمًا له أولٌ وليس له آخر فى فلسفة الجمال ، وأن نعتسف من أجل ابن الرومى وإكرامًا لخاطره ولسواد عينيه — إن صحّ أنهما كانتا

سوداوين ! – تلك الوعورَ التى زحم بها الطريقَ أفلاطون وأرسططاليس وبلوتيناس من القدماء ، وكانت وشلنج وهيجل وشوبنهوار وهربارت ولسنج وجيته وشيللر ومئات غيرهم من الألمان ، ويربوفيروتين وليفيك وسواهم من الفرنسيين ، وهتشنسون وشفتسبرى وريدورسكن وهوم وبيرك واليزون وبين وسبنسر من الإنجليز ؛ وأن نحاول أن نقامس فى ذلك اليم الطامى كلَّ هاتيك الحيتان الفظيعة ! لا يا سيدى القارئُ عفوَك! فلِى كابن الرومى لو أُلقيت فى هذا البحر« وصخرةً، لوافيت منه القعرَ أول راسب !» .

ولــم أتعلم قــط من ذى سباحة
سوى الغوص ، والمضعوفُ غير مغالب

وكما كان أيسرُ إشفاقه من الماء أن يمر « به فى الكوز مرَّ المجانب » كذلك أيسر إشفاقى من مباحث أصحابنا هؤلاء أن لا أقرب الرفَّ الذى فيه كتبهم ! وإذا كتب الله لى أن أفتحها أغمضتُ عينى ! ولقد كنت فى بعض ما سلف من عمرى جريئًا ، وكنت لا أتهيب كل التهيّب أن أفتح واحدًا من هذه الكتب ، ولكنى كنت لا أكاد أعبر بضعَ صفحات حتى أحسُّ كأنى مُطلٌّ من زحلوقةٍ على هاوية سحيقة ، فتنفرج شفتاى عن صوت كهذا « بوررررر ! » فأرفع رأسى فزعًا ، وأمسك بجوانب الكرسى حتى تطمئن نفسى ويذهب عنى الروعُ وأحمد الله على السلامة !

إذن فما العمل ؟ وكيف نتم – على أى وجه – ما بدأناه من الكلام عن ابن الرومى ؟ الحق أقول لك ، أيها القارئ ، إنى لا أدرى ! وقد بدأت أشعر لابن الرومى بغيظ واضطغان لدفعه إياى إلى هذه المآزق المرعبة . ولقد حدثتنى نفسى أن أبتر الكلامَ مكتفيًا بما سبق ، وأن أجعل الختام هجاءً له ! – لكننى ذكرت قوله :

رقادَك ! لا تسهر لىَ الليل ضلة ولا تتجشم فىّ حوك القصائد
أبى وأبوك الشيخ آدم ، تلتقى مناسبنا فى ملتقى منـــه واحد
فلاتهجنى احسبى من الخزى أننى وإيـــاك ضمتنى ولادةُ والـــد

فعضضت شفتى وعدلت ! وبدا لى أن أضرب صفحًا عن الشواهد على قدر الامكان ، لأنها آلاف مبعثرة لا يتسع لنقلها المقام ، وأن أورد ما يدل عليه شعره ، أى أن أقدم للقارئ صورة عامة مجملة عن آراء ابن الرومى وأن أدع له رسمَ الخطوط التفصيلية إذا شاء . ولماذا لا يتعب القارئ قليلاً ؟ ما الذى يوجب على الكاتب أن يتكلف كل ضروب العناء حتى لا يحوجه حتى ولا إلى « هضم » الفكرة ؟ ماذا يصنع القارئ برأسه هذا الذى فوق كتفيه ؟ أليس أجدى عليه أن يحتاج إلى التفكير بنفسه ولنفسه حتى لا يعتاد الكسل ، وحتى لا يعود رأسُه حملاً على كتفيه ؟ هذا أصلح ولا شك ! فإن كان لا يعجبه هذا ، ولا ترضيه طريقتنا الجديدة ، فما عليه إلا أن يقف عند هذا الحد ولا يمضى فى قراءة المقال ! والآن فلنبدأ :

من أول ما يلفت النظر فى شعر ابن الرومى نوعُ إحساسه بالطبيعة . فهو لا يحسها ولا يتأملها إلا إحساسًا شعريًا ؛ ونعنى بذلك أن خياله ينشط ، وأنه حين يتدبر قواتها ومباهجها وحالاتها المتنوعةَ ، يفيض من حياته عليها ، ويعيرها من إحساسه وخواطره حتى تعود فى نظره حية نابضة مثله ، لها حسٌ وروح وذاكرة ، بل إرادة . نعم إرادة ! وحسبك أن تقرأ له هذا البيت من جيميته التى يرثى بها أبى الحسين العلوى .

لمن تستجد الأرضُ بعدك زينةً فتصبح فـى أثوابهـــا تتبرج ؟

فإنك على أى محمل حملته ، وكيفما أولت صدر البيت ، لا تستطيع أن تهرب من الشعور بأن هذه الأرض — التى « تسمى الأرض أحيانًا » —

ليست مادةً خالية من الحياة ولا صورة ميتة . على أن الطبيعة عنده مسخرةٌ للحياة ، فهى دونها وبعضها ، ووسيلة إلى تحقيق غاياتها ، وليست نوعًا من الحياة قائمًا بذاته مستقلاً عن حياة الإنسان . وهذه نظرة واضحة العلة ، لأنه بعد أن يريق عليها من فيض حياته هو ، لا يسعه إلا أن يشتمل عليها أو يجعل الحياةَ نفسها مشتملةً على الطبيعة معه .

وقد تراه ، أحيانًا ، حين يصف منظرًا ، لا يكتفى بأن يعزو إليه الحياة والحس ، بل يكاد بخياله يتسرّب فى خلال هذا المنظر ويغيب فى أثنائه ، لا من الوجهة المادية بل من حيث الاحساس . ونظن أن هذا الكلام يحتاج إلى مثلٍ يُضرب ويستعين به القارئ على فهم المراد فنقول : هبك تتدبر هيكلاً من الهياكل المصرية القديمة مثلاً فإنك إذا كنت قوى الخيال أو نشيطه ، وأرقت على هذا الهيكل بعض حياتك أمكنك أن تتصور أن هذه العمد ليست حجارة مرفوعة يستوى فوقها سطحٌ ويتزن ، بل هى مثلاً حركةٌ صاعدة مستمرة ، أو قوى حية تعالج أن تقاوم الضغطَ الواقع عليها الذى يريد أن يهبط بها . ولست تستطيع أن تتصور ذلك دون أن يخالجك إلى حد كبير نفس الاحساسات التى تقيضها على هذه العمد وما فوقها — وابن الرومى حين يصف الطبيعة يعيرها روحه ، ويضع نفسه موضعها ، ويفضى إليك بإحساسه معزوًّا إلى الموصوف . ولكنه مع هذا لا يفقد شعوره بنفسه وبالعالم ، ولا يكون كالمسحور ، بل يظل متفطنًا إلى حقائق الدنيا اليومية ، فكأن شعوره مزدوج : يقبل تصوير خياله للحقيقة ، ويتعلق به ، ويكبحه عن الغلو والاستغراقِ المفرطِ الاقرارُ الباطن للحقيقة الملموسة وراء ذلك . وليس يخفى أن الأمر فى هذين يتوقف على عنصر النشاط الخيالى الذى يختلف باختلاف الناس ، وعلى مقدار الاختلاف فى التجارب السابقة ، وعلى طبيعة المزاج وغير ذلكَ مما يدفع إنسانًا إلى إيثار المرئيات ،

وآخرَ إلى التعلق بالأصوات ، وهكذا .. مما يجعل مجال الخيال وعمله فيما يتناوله الحس ، مختلفًا باختلاف الناس .

وواضح من شعر ابن الرومى أن إحساسه بالجمال فى الطبيعة وفى الإنسان لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما ، بل كان لحواسه الأخرى ، ولا سيما اللمس والشم ، حظٌّ وافر من القدرة على إفادة الاستمتاع بالجمال . فكان إذا نظر مثلاً إلى زهرة يكاد « يلمسك » غلائلها من وصفه لها ، ويشمك أريجها ويشعرك كأنه يمسحها بكفه فى رفق ، ويدنيها من أنفه فى سكر ، وكان حظُّ الشم عنده عظيمًا أيضًا . غير أن أوفر الحظوظ للسمع والعين ومن حقهما ذلك ولا سيما عند ابن الرومى الذى « يكاد » يدور كل إحساس له بالجمال فى الطبيعة وفى الإنسان على « الغريزة النوعية » وذلك لأن النظر والسمع ، لكونهما يستطيعان أن يتناولا المرئىَّ والمسموعَ عن بُعد ، يسمحان بأن يشترك فى المنظور أو المسموع ، خلقٌ كثير – وذلك أيضًا ما تستطيعه حاسة الشم إلى حد كبير . ومن هنا كانت حاستًا النظر والسمع ، ثم حاسة الشم ، حواسًا اجتماعية ، أى أن بها – ولا سيما بالأوليين – يتمكن أكثر من فرد واحد من الاشتراك فى التأثر بالجمال ، ولذلك كانتا هما الحاستين الفنيتين ، لأنهما وسيلة مشتركةٌ للإحساس بالجمال ، ولمضاعفة هذا الإحساس وتقويته بتأثير التعاطف . وإذا شئت دليلاً محسوسًا على ذلك من عصرنا الحاضر فالتمسه فى نجاح المسارح التمثيلية ودور الغناء والرقص والصور المتحركة وما إليها . أضف إلى ذلك أن الاحساس من طريقهما أصفى وأسمى ، إذ كانا أبعد أخواتهما عن وظائف الحياة الضرورية وحاجاتها الملحّة ومطالبها المقلقة . وهما يحضران إليك الأشياء المادية فى أقل حالاتها إزعاجًا . لأن الأشكال والألوان والأصوات ، إذا قيست بما يلمس ويتصل

من طريق اللمس بأجسامنا ، أشبه بصورٍ للأشياء المادية أو رموزٍ بعيدة لها ، ومن أجل ذلك كانت هاتان الحاستان أصلحَ من غيرهما لأن يكونا أداةً إلى الاستمتاع الفنى بالجمال .

وقد كان ابن الرومى كما أسلفنا يرى الطبيعة مسخرةً للحياة ومعوانًا على حياة الفرد وحياة النوع أيضًا . فهو القائل :

إذا شئتُ حيتنى رياحين جنة ... على سوقها فى كل حين تنفس
وإن شئت ألهانى سماعٌ بمثله ... حمام تغنى فى غصون توسوس
تلاعبها أيدى الرياح إذا جرت ... فتسمو وتحنو تـــارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها ... أفادت «بهـا أنس الحياة» فتؤنس
تواميض فيها كلما تسمع الضحى ... كواكب يذكو نورها حين تشمس

والقائل فى وصف روضة :

ورياضٍ تخايلُ الأرض فيها ... خـيلاء الفتـــاة فى الأبراد

وتأمل إلى جانب هذا البيت قوله فى نسوة .

ومِسن فى حلل الأفواف عاطرة ... فخلتهن لبسن الـــروضَ أفوافا

فالروضة كأنها الفتاة تميس فى برد مفوّف ، والفتاة كأنها الروضة فى وشيها المطرف ؛ وكما أن المرأة تتجمل وتتزين وتتعطر وتتدهن لتملك قلبَ الرجل وتستولى على هواه حين تبرز له ، كذلك الطبيعة فى الربيع :

أصبحت الدنيا تروق من نظر ... بمنظر فيـــه جـــلاءٌ للبصر
أثنت على الله بآلاء المطـــر ... فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النـــوار زهـــراء الزهـــر ... تبرجت بعـــد حيـــاءٍ وخفـر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

والمرأة إنما تتجمل وتتحلى للرجل ، لا حبًا فى الزينة ولا طلبًا للتجمل من حيث هو وباعتباره غرضًا فى ذاته . وإنما تفعل هذا لأنه بعض سلاحها الذى تقنص به الرجلَ لتؤدى وظيفتها التى خلقت لها ، وهى المحافظة على النوع . وكذلك الحياء ، عنده ، سلاحٌ جنسى ، لا تتكلفه المرأة ولا تتصنعه ، ولكنه من الصفات التى تضيف إلى جمالها وتجعله أفتن للب وأسحر للقلب . والمرأة حين تفوز بإرضاء عاطفتها الجنسية لا تعبأ بالتجمّل ولا تحرص على زينتها أو حيائها أو دلالها ، أو غير ذلك من أدوات قنصها ، إذ لم يبق لها من محل أو عمل . وله فى ذلك أبيات ليس أعمق منها ولا أصدق ، وإن كان فيها فحش كثير ، ومنها :

تتجمل الحسناءُ كل تجمـــل حتى إذا مـــا أُبرز المفتـــاح
نسيت هناك حيائهـــا ودلالهـــا شبقًا، وعند الماح ينسى الداح !

وليس الجمال عنده شكلاً فحسب ، بل هو أيضًا « تعبير » وهو فوق هذا يأبى أن يكون له حدودٌ ينحصر فيها ويقتصر عليها ويسهل تعديدها ، ثم هو ، إلى هذا ، صفة يتعذر التفريق الدقيق بينها وبين ما هو إليها من الصفات . وما عليك إلا أن تقرأ له داليته فى وحيد المغنية ، وكان مشغوفًا بها . وفيها يقول :

وغرير بحسنها قال صفها قلت أمـــران : بينٌ ، وشديد
يسهل القول انها أُحسن الأشياء طـرًا ، ويصعب التحـــديد
تتغنى كأنهـــا لا تغـــنى من سكون الأوصال، وهى تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين لك منهـــا ، ولا يدر وريد
من هدوء وليس فيـــه انقطاع ، وسجوٌ ومـــا بـــه تبليـد

وفى صوتها يقول :

ميد فى شأوِ صوتها نفسٌ كا ... ف ، كأنفاس عاشقيها ، مديد
وارقٌ الدلال والغنجِ منـــه ... وبـــراه الشجى فكـــاد يبيد
فتراه يموت طورًا ويحيا ... مستلـــذٌ بسيطـــه والنشـــيد
فيه «وشىٌ» وفيه «حلى» من النغم ... مصوغ « يختال » فيـــه القصيد

ثم يقول مستغربًا مجيبًا :

ليت شعرى إذا أدام إليها ... كرةَ الطرف مُبدئ ومعيـــد
أهى شىء لا تسأم العين منه ؟ ... أم لهـــا كل ساعة تجديد ؟
بل هى «العيش» لايزال متىاستُعر ... ض يملـــى غرائبًا ويفيـــد
منظر ، مسمع ، معان من اللهو ... عتـــادٌ لمـــا يحب عتيـــد

وبهذا البيت الأخير يفطن إلى ما فطن إليه شيللر الشاعر الألمانى ، وتابعه عليه سبنسر الإنجليزى ، من العلاقة بين الاحساس الفنى بالجمال وبين اللهو الذى هو نتيجة الفائض من النشاط العضوى .

وقلٌ من بين شعراء العرب أو غيرهم من يقارب ابن الرومى فى دقة احساسه بالجمال فى جميع مظاهره وأشكاله ، ولقد فقد شبابه وبكاه فى عدة قصائد ، فكان أكثر ما بكى منه أن فقد به القدرةَ على التمتع بالجمال . اقرأ له قصيدته التى مطلعها :

أبين ضلوعـــى جمرةٌ تتوقد ... على ما مضى أم حسرة تتجدد

وتأمل قوله فيها :

وفقدُ الشباب الموتُ يوجد طعمه ... صراحًا، وطعم الموت بالموت يفقد

فماذا تراه فى ظنك يبكى بهذا البيت ؟ الموت فى الحياة ؟ وماذا يكون هذا إلا ما ذكرنا ؟ ثم قوله بعده :

سلبت سواد العارضين ، وقبله ... بياضهما المحمود إذ أنا أمرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه ... بياضًا ذميمًا لا يزال يُسود
لشتان ما بين البياضين : معجب ... أنيق ، ومشنوء إلى العين أنكد
وكنت جلاءً للعيون من القذى ... فقد جعلت تغذى بشىء وترمد
هى الأعين النجل التى كنت تشتكى ... مواقعها فى القلب، والرأس أسود
فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمد ؟

إلى أن يقول فى انصراف نبل الغانيات عنه :

إذا عدلت عنا وجدنا عدولها ... كموقعها فى القلب ، بل هو أجهد

ثم صرخته :

أأيام لهوى هل مواضيك عوّد ... وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟

خاتمة

أخطأ حسابى وحسابُ الناشر ، فجاوز الكتاب ما كنا نتوقع له ، وما كان العزم أن نقصره عليه ، فمعذرة إذا كنا قد أسأنا بالاطالة ، وضاعفنا بها بواعث الملالة !

والكتاب ، كما هو الآن فى يد القارئ ، يمثّل منزعَ الناشر أكثر مما يمثل نفسَ الكاتب . فقد أبى إلا أن يخليه من نقد المعاصرين ليريح نفسه من حماقات المعاتبين ! وحسنًا فعل ، أو شرًا فعل ، كما تريد ! ومن الذى يستطيع الراحة ولا يستريح ؟ غير أن الكتاب بهذه الصورة يعرض منى جانبًا ويطوى جانبًا ، ويصور للقراء لين ملمسى ويستر أظافرى ، ويبدينى مفترَّ الثغر منزوع النيوب مقلوع الضروس ! . ولست أبالى كيف أبدو للقارئ ! وما كنت لأعنى بجمع هذه أو تلك من مقالاتى ونشرها ، بعد أن طويت مع الصحف التى ظهرت فيها ، لولا أنى فرّجت بذلك أزمة كانت مستحكمة ! وما أرانى أنقذتها أو أحييتها ، بل بعثتها من قبورها لتلقى حسابها ! ولعله كان خيرًا لها أن تظل ملفوفة فى أكفانها !

وأحسبنى بعد أن صارحت القارئ بهذا الذى لم يكن يعلمه ، لا أحتاج أن أقول إنى لا أكتب للأجيال المقبلة ، ولا أطمع فى خلود الذكر . وهل ترى ستكون هذه الأجيالُ المقبلة محتاجةً — كجيلنا — إلى هذه البدائة ؟ أليست أحق بأن يكتب لها نفرٌ منها ؟ أمِنَ العدل أم من الغبن أن نكلِّف الكتابة لجيلنا ولما بعده أيضًا ؟ تالله ما أحق هذه الأجيال المقبلة بالمرثية إذا كانت ستشعر بالحاجة إلى ما أكتب !! ليتهمها غيرى بالعقم إذا شاء !

ويرى القارئ في كتابي هذا مقالاً كان في الأصل مقدمة لكتاب جمعتُ فيه ما نقدتُ به شعر حافظ منذ أكثر من عشر سنين . وللقارئ الحق أن يستغرب أن أنقل مقدمة كتاب مطبوع وأن أدسها هنا . ولهذا سبب لا أرى بأسًا من إيضاحه : جمعت فيما مضى نقدى لشعر حافظ وطبعته ونشرته ، وبعت منه عددًا ليس بالقليل ، ثم أخذ الشراةُ يبطئون عليّ ، فضقت ذرعًا بما بقي من نسخه ، فحملتها إلى بقّال رومىٍّ اشتراها منى بالإلقة ! وعزيت نفسى عن ذلك بقولى لنفسى إن جبن الرومى وزيتونه أحق بهذا النقد ! ؟ ثم مضت عشرة أعوام وبعض عام وشرعنا نطبع « حصاد الهشيم » هذا ، وإنا لماضون فى ذلك إذ جاءنى صديق يعودنى ، وكنت مريضًا ، وأطلعنى على صحيفة ينشر فيها بعضهم نقدًا لشعر حافظ ، وأكثره مسروق من قديم نقدى !! وسألنى الصديق « أأنت الكاتب ؟ » قلت « كلا ! » .

قال « إذن فهى سرقة يحسن التنبيه إليها » .

وألحّ عليّ فى ذلك ، فقلت له « اسمع ! زعموا أن لصًا تسلّل إلى بيت فألفاه أفرغ من فؤاد أم موسى ! وعزّ عليه أن ينقلب صفر اليدين ، أو كما يقول العربُ رحمهم الله ، أو ما شاء فليصنع بهم ، خالى الوفاض بادىَ الأنفاض ، فواصل البحث وهو مغيظ محنق ، فما راعه إلا رجل فى بعض الغرف مختبئ فى ركن ، ووجهه إلى الحائط . فلما ثابت إليه نفسه بعد الدهشة ، قال لعله لص مثلى وضحك ! ودنا منه فلم يتحرك ، فوضع يده على كتفه فى رفق وسأله « من أنت يا هذا ؟ وماذا تصنع هنا ؟ » .

فاستدار الرجل وقال ، ووجهه إلى الأرض « أنا صاحب البيت !! وقد شعرت بدخولك وأدركت غرضك فتواريت منك خجلاً !! » .

وأنا يا صديقى كصاحب هذا البيت العارى ! أستحيى أن أنبِّه إلى سطو صاحبنا المتلصِّص على نقدى ، مخافة أن يتنبَّه الناس إلى ما أرجو مخلصًا أن يكونوا قد نسوه من أنى أنا كاتب ذلك الهراء القديم ! ومن أجل ذلك أهب لِلصِّنا ما عدا عليه وبزّنى إياه ، وما أسهل أن يهب المرءُ غير شىء !!

فضحك صاحبى وانصرف ! وخطر لى بعد أن وهبت النقد لسارقه أن أستنقذ المقدمة .

ولم يبق مما أريد أن أقوله فى هذه الخاتمة سوى كلمة واحدة : هى أنى مستغن عن رضى النقاد المتحذلقين عن كتابى هذا ، وقانعٌ باستحسان أمثالى من الأوساط المتواضعين وهم بحمد الله كثيرون فى هذا البلد الأمى ! بل أكثر مما يلزم لى !

٢٨ يناير سنة ١٩٢٥

إبراهيم عبد القادر المازنى